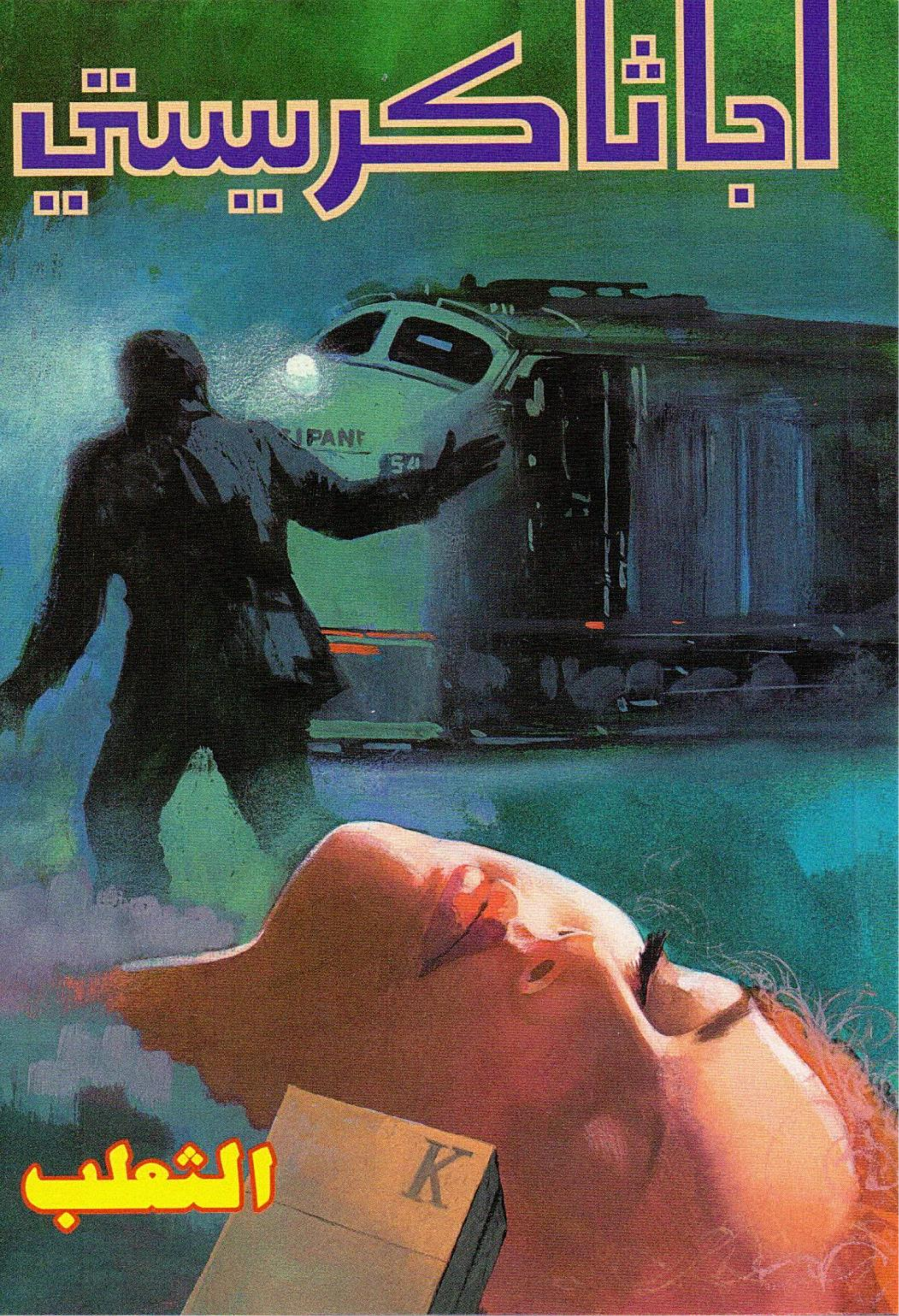

اجاثا كريستي
الثعلب
K

الثعلب

برنارد الأسطه

يقدّم

الرواية المعربّة

الثعلب

(83)

تأليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب الراحل

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

دار ميوزيك

للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

ص.ب 374 جونيه – لبنان

تلفون 666 212 9 961 00 فاكس 665 212 9 961 00

www.inter-press.org Email:info@inter-press.org

وكلاء التوزيع

المركز الدولي للصحافة – دار البشير – دار إي بي سي

الاسم الأصلي للرواية

Parker Pyne Investigates

(1934)

الغلاف بريشة الفنان

عبد العال

شخصيات الفصل الأول

باركر باين: مخبر

ليدي أريان جريل: امرأة ثرية عمة "باميلا"

باميلا جريل : أو "بام"

جورج جريل: بارون فقير: زوج الليدي "أريان جريل"

باسيل وست: السكرتير

الآنسة **ماكنوتون**: الممرضة

الفصل الأول
على ضفاف النيل

كانت الليدي "**جريل**" عصبية المزاج منذ أن صعدت على سطح المركب "**الفيوم**" وهي تتذمر من كل شيء.. لم تعجبها المقصورة... وكانت الشمس حارقة بعد الظهر. وكانت ابنة أخيها "**باميلا جريل**" تحاول إرضاءها فتنازلت لها عن كابينتها، وعنفت الممرضة الآنسة "**ماكنوتون**" لأنها ناولتها وشاحًا لا ترغب فيه ولأنها وضعت الوسادة الصغيرة في الحقيبة، وعنفت زوجها السير "**جورج**" لأنه أحضر لها سبحة غير التي كانت تريدها ووصفته بالغباء. قال لها معتذراً:

– آسف جدًا يا عزيزتي. آسف جداً، سأذهب لتغييرها. هناك مُتَّسع من الوقت. لكنها لم تعنف سكرتير زوجها "**باسيل وست**" لأن ابتسامته كانت تجرد أي شخص من أي سلاح، لكن القَدْر الأكبر من سخطها كان من نصيب الدليل، وهو رجل وقور حسن الملابس يبدو هادئا جداً، وعندما رأت شخصا غريبا جالسا على الكرسي القش على ظهر المركب وتأكدت أنه مسافر مثلها، انفجرت صارخة:

– لقد قالوا لي بكل وضوح في المكتب إننا المسافرون الوحيدون، قالوا إننا في آخر الموسم ولن يكون هناك مسافرون آخرون.

– هذا صحيح يا سيدتي. أنت ومرافقوك وهذا السيد فقط.

– لكنهم قالوا لي إنه لن يكون هناك أحد غيرنا.

– هذا صحيح يا سيدتي.

– هذا غير صحيح، هذا كذب، ماذا يفعل هذا الشخص هنا؟

– وصل متأخرا يا سيدتي بعد أن حجزتم تذاكركم؛ فقد قرر المجيء هذا الصباح فقط.

–.هذا غش.

– كل شيء سيكون على ما يرام. إنه شخص هادئ جدًّا لن يزعجكم.

– أنت مغفل ولا تدري أي شيء. آنسة "**ماكنوتون**"، أين أنت؟ لقد طلبت منك عدة مرات أن تكوني بجانبي دائما؛ فربما شعرت بالإغماء. خذيني إلى المقصورة وأحضري لي الأسبيرين، ولا تدعي هذا الرجل يقترب مني بعد الآن، سوف أجن لو قال لي مرة أخرى إن كل شيء على ما يرام.

ومدت الآنسة "**ماكنوتون**" لها ذراعها دون أن تتكلم. كانت امرأة طويلة تقرب من الخامسة والثلاثين، عليها مسحة من الجمال. ورافقت الليدي "**جريل**" إلى الكابينة ووضعت بعض الوسائد وراء ظهرها وأعطتها الأسبيرين ثم جلست تنصت إلى سلسلة شكاواها.

كانت الليدي "**جريل**" تبلغ الثامنة والأربعين، ومنذ أن كان عمرها ستة عشر عاما وهي تشكو من كثرة المال في يدها، وتزوجت البارون الفقير "**جورج جريل**" منذ عشر سنوات، وكانت بدينة وملامحها لا بأس بها، لكن وجهها كانت تكسوه التجاعيد التي كانت تزداد وضوحًا من كثرة ما تضع من مساحيق، وأما شعرها فكان بلاتيني اللون ثم أصبح أشقر ثم أحمر وكانت تكثر من ارتداء الحلي.

– ثم قولي للسير "**جورج**" إن هذا الرجل يجب أن يغادر المركب فورا. أريد أن نكون بمفردنا بعد كل المشاق التي عانيناها أخيراً.

– أمرك يا ليدي "**جريل**". وخرجت الآنسة "**ماكنوتون**" من الكابينة. وكان المسافر الآخر لا يزال جالسا على الكرسي القش، كان يدير ظهره لـ"**الأقصر**" ويرقب التلال البعيدة على الشاطئ الآخر. ووجدت الآنسة "**ماكنوتون**" السير "**جورج**" في الصالون ممسكا بسبحة يتفحصها باهتمام.

– آنسة "**ماكنوتون**"، هل تظنين أن هذه السبحة توفي بالغرض؟

– جميلة جدًّا.

– هل ستعجب الليدي "**جريل**"؟

– لا أظن ذلك يا سير "**جورج**". لا شيء يعجب الليدي "**جريل**"، هذه هي الحقيقة، وبهذه المناسبة طلبت مني أن أبلّغك أنها تريد أن تتخلص من المسافر الجديد.

– وكيف أستطيع أن أفعل ذلك؟ ماذا يمكنني أن أقول له؟

– قطعًا لن تستطيع، يمكنك أن تقول لها إنه من المستحيل عمل شيء الآن وستمر الأزمة بخير.

– هل تعتقدين ذلك فعلا؟ وأجابت الآنسة "**ماكنوتون**" بصوت حنون:

– لا يجب أن تقلق نفسك بهذه الأمور يا سير "**جورج**"، إن صحتها هي السبب كما تعلم. لا تأخذ الأمور على محمل الجد هكذا.

– هل تظنين أن حالتها سيئة؟ وكانت هناك نبرة غريبة في صوتها وهي تجيب:

– نعم. لا تعجبني حالتها على الإطلاق لكن أرجوك ألا تنزعج أرجوك. وابتسمت له مشجعة ثم خرجت. ودخلت "**باميلا**" وكانت تبدو منتعشة في فستانها الأبيض.

– أهلا يا عزيزتي "**بام**".

– ماذا تحمل في يدك؟ إنها جميلة جدًا.

– أشكرك على هذه المجاملة. هل تظنين أنها ستعجب عَمَّتك أيضًا؟

– لا يمكن أن يعجبها شيء. أحيانا لا أدري ما الذي دفعك إلى الزواج بها. وصمت السير "**جورج**"، ومر بمخيلته شريط طويل من سباق الخيل والدائنين، ثم هذه المرأة المسيطرة الثرية.

– أيها العجوز المسكين، أظنك اضطررت إلى هذا الزواج، لكنها تجعل من حياتنا جحيما.

– فقط منذ مرضها. وقاطعته "**باميلا**":

– إنها ليست مريضة على الإطلاق ويمكنها أن تؤدي أي عمل بنشاط. عندما تركتنا وذهبت إلى "**أسوان**" كانت مرحة ونشطة كالعصفور. أراهنك على أن الآنسة "**ماكنوتون**" تعرف أنها تمثل علينا. وتنهد السير "**جورج**" قائلا:

– لا أعرف ماذا كنا نستطيع أن نفعل دون الآنسة "**ماكنوتون**".

– امرأة قديرة تماما، ربما لا تعجبني بالقدر الذي تعجبك به. لا تعارضني؛ فأنت

معجب بها تماما. ترى أنها مدهشة وهي فعلا مدهشة بطريقة ما، لكنها امرأة غامضة لايمكن لأحد أن يعرف حقيقة ما يدور برأسها، لكنها تعرف كيف تتصرف مع القطة العجوز.

– لا يجب أن تقولي هذا عن عمتك يا "**بام**"؛ فهي على الأقل تحسن معاملتك جداً.

– طبعًا؛ إنها تُسدِّد كل ديوني لكن على الرغم من ذلك فالحياة معها جحيم. وغَيَّر السير "**جورج**" مجرى الحديث:

– وماذا سنفعل مع هذا الشخص الذي انضم إلينا في الرحلة؟ عمتك تريد المركب لها وحدها. فقالت "**باميلا**" ببرود:

– لكنها لن تستطيع؛ فالرجل تبدو عليه كل مظاهر الاحترام، اسمه "**باركر باين**"، أظن أنه كان موظفا في قسم السجلات. الغريب أنه يبدو لي أنني سمعت هذا الاسم من قبل. ودخل السكرتير في هذه اللحظة فبادرته "**باميلا**":

– "**باسيل**"، أين سمعت باسم "**باركر باين**" من قبل؟

– من الاعلانات في جريدة "التايمس". هل أنت سعيدة؟ إذا لم تكوني كذلك فاستشيري السيد "**باركر باين**".

– هذا أمر مسلٍّ جداً. هلموا نجلس معه ونقص عليه كل مشاكلنا حتى نصل إلى "**القاهرة**". قال "**باسيل وست**" ببساطة:

– لا توجد عندي أية مشاكل. سوف نبحر على النيل الباهر ونتفرج على المعابد. ثم نظر بسرعة ناحية السير "**جورج**" الذي كان قد التقط إحدى الصحف، وأضاف بهمس وبسرعة:

– معًا. لكن "**باميلا**" التقطت الكلمة، والتقت عيونهما.

– أنت على حق يا "**باسيل**". من الممتع أن نكون أحياء. ونهض السير "**جورج**" وخرج، وتجهم وجه "**باميلا**" فقال "باسيل":

– ما أمرك يا حبيبتي؟

– هذه العمة الكريهة.

– لا تدعي القلق يتسرب إليك، لا تلقي بالا إلى ما تقول، فقط لا تعارضيها؛ فهذه

طريقة جديدة للمواربة. ودخل السيد "**باركر باين**" الصالون وخلفه "**محمد**" المرشد السياحي.

– سيداتي وسادتي، نبدأ الرحلة الآن. بعد دقائق سنمرُّ بمعابد الكرنك إلى ناحية اليمين، سأقص عليكم الآن قصة الفتى الصغير الذي ذهب يشتري خروفا مشويا لأبيه.

جفف السيد "**باركر باين**" حبات العرق العالقة بجبهته، كان عائدا لتوه من زيارة معبد "**دندرة**"، وكان ركوب الحمار متعبا لرجل في مثل حجمه، وكان قد بدأ يبدل قميصه عندما تنبه للرسالة الموجودة على المنضدة، ففضها وقرأها:

سيدي العزيز:

أكون شاكرة لو أنك صرفت النظر عن زيارة معبد "**أبيدوس**" وبقيت على المركب لأنني أرغب في استشارتك.

المخلصة

"**أريان جريل**"

وابتسم السيد "**باين**" وأخرج ورقة وقلما وكتب:

– عزيزتي الليدي "**جريل**": آسف؛ لأني أمضي عطلتي ولا يمكنني أن أقبل أية قضية.

ووقَّع الخطاب وطلب من أحد الخدم أن يحمله إليها، وما إن أتم تغيير ملابسه حتى جاء الرد:

عزيزي السيد "**باركر باين**":

أنا مقدرة ظروفك تماما لكنني مستعدة لأن أدفع مبلغ مائة جنيه لمجرد استشارة.

وقطب السيد "**باين**" حاجبيه مفكرا، كان يرغب في مشاهدة "**أبيدوس**" لكن المائة جنيه كانت تغريه خاصة وأن مصاريف الرحلة بدأت ترهقه؛ فكتب:

عزيزتي الليدي "**جريل**": لن أذهب لزيارة معبد "**أبيدوس**".

المخلص

"**باركر باين**"

وحزن المرشد جداًّ عندما علم أن السيد "**باركر باين**" لن يغادر المركب لزيارة "**أبيدوس**".

– معبد في منتهى الجمال، كل السيَّاح يودون مشاهدته. سأحضر لكَ عربة أو كرسيا

ويحملك البحَّارة. ورفض السيد "**باين**" كل هذه العروض، ورحل الآخرون ووقف السيد "**باين**" على ظهر المركب إلى أن فُتح باب كابينة الليدي "**جريل**" وخرجت منها.

– الحر لا يطاق. لقد قررت عدم الذهاب وهذا قرار حكيم جداً. هل نتناول الشاي معًا في الصالون؟ وتبعها السيد "**باين**" والفضول يستبد به. بدا له أن الليدي "**جريل**" تجد صعوبة في طرق الموضوع، بدأت تتكلم عن أشياء مختلفة إلى أن اختلفت نغمة صوتها وقالت:

– سيد "**باين**"، إن ما سأقوله لك يجب أن يبقى سرا بيننا، أرجوك أن تفهم هذا جيدا.

– طبعا. وسكتت وأخذت نفسا طويلا، وانتظر السيد "**باركر باين**".

– أريد أن أعرف ما إذا كان زوجي يدس لي السم أم لا. مهما كان الذي يتوقعه السيد "**باين**" فإنه لم ينتظر هذا إطلاقا، وبدا على وجهه التعجب:

– هذا اتهام خطير يا ليدي "**جريل**".

– أنا لست ساذجة، ولست ابنة الأمس، إني أشك في ذلك منذ وقت طويل. كل مرة يبتعد فيها "**جورج**" عني أشعر بشهية للأكل. أشعر بأنني امرأة مختلفة لابد من أنْ هناك سببا لذلك.

– لكن الذي تقولينه كلام خطير، ثم يجب أن تتذكري أنني لست رجل شرطة، أنا بمعنى أصح خبير في القلوب... فقاطعته:

– ألا تظن أن هذا يقلقني جداً؟ أنا لا أريد أن تتدخل الشرطة في الأمر، اسمع، أنا أعرف جيداً كيف أحافظ على نفسي، مع الشكر، أنا أريد أن أتأكد فقط. يجب أن أعرف، أنا لست امرأة شريرة يا سيد "**باين**"، أنا أحسن معاملة من يحسنون معاملتي، والاتفاق يجب أن يحترم، وقد احترمت ما يخصني منه. لقد دفعت كل ديون زوجي ولم أبخل عليه بالمال. وشعر السيد "**باين**" بالعطف على السير "**جورج**".

– أما بخصوص الفتاة فلها الفساتين والحفلات، وهذا وذاك، وكل ما أطلبه الاعتراف بالجميل.

– الاعتراف بالجميل ليس الأمر الذي يلبي الطلب يا ليدي "**جريل**".

– كلام فارغ. المهم هذه هي مشكلتي؛ فعليك أنت أن تبحث عن الحقيقة، ويوم أعرفها...

– ماذا سيحدث يوم تعرفينها يا ليدي "**جريل**"؟

– هذا شأني الخاص. وسكت السيد "**باين**" لحظة ثم قال:

– أرجو المعذرة يا ليدي "**جريل**" لكنني أعتقد أنك لست صريحة معي إلى الحد الكافي.

– لقد قلتُ لكَ ما أريدك أن تكشفه لي.

– نعم لكن لم تقولي السبب. وأطرقت قليلا.

– أظن أن السبب واضح بما فيه الكفاية.

– لا، هناك نقطة مازالت موضع شك.

– وما هي؟

– هل تريدين أن تكون شكوكك صحيحة أم غير صحيحة؟ ونهضت الليدي "**جريل**" وهي ترتجف حنقا:

– سيد "**باين**"، كيف؟ وهز السيد "**باين**" رأسه:

– هذا لا يجيب عن سؤالي. وبدا أنها لا تجد الكلمات، وخرجت مسرعة من الصالون. وجلس السيد "**باركر باين**" وحيدا وهو يفكر، واستغرق في تفكيره لدرجة أنه انزعج عندما دخل شخص وجلس قبالته. كانت الآنسة "**ماكنوتون**". سألها السيد "**باين**":

– حقًّا لقد عدتم مسرعين.

– لم يعد الآخرون بعد. قلت لهم إنني أعاني الصداع ورجعت بمفردي. وترددت قليلا ثم قالت:

– أين الليدي "**جريل**"؟

– يخيل إليَّ أنها راقدة في غرفتها.

– إذن فكل شيء على ما يرام. لا أريدها أن تعرف أنني رجعت.

– لم تعودي بسببها إذن.

– لا، لقد عدت لأتحدث معك. وأدهش ذلك السيد "**باين**"، كان يبدو على الآنسة "**ماكنوتون**" أنها قادرة على معالجة مشاكلها بنفسها ودون حاجة إلى نصائح الآخرين، لكنه كان مخطئا.

– لقد راقبتك منذ أن وصلت. أعتقد أنك إنسان ذو خبرة واسعة ورأي صائب، وأنا

في مسيس الحاجة إلى نصيحة.

– لكن اعذريني يا آنسة "**ماكنوتون**"، أنت لست من الطراز الذي يسأل النصيحة. أعتقد أنك من الأفراد الذين يعتمدون على حكمهم الشخصي.

– في الأحوال العادية، يجوز... لكنني الآن في وضع غريب جداً، إنني لم أتعود أن أتحدث عن مشاكلي، لكن في هذه الحالة أعتقد أن ذلك أمر ضروري. عندما تركت "**إنجلترا**" في صحبة الليدي "**جريل**" كانت حالتها واضحة تماما. بصراحة، لم يكن بها شيء. ليس إلى هذا الحد، طبعا كانت هناك الرفاهية الزائدة والمال الكثير، وهذا يسبب ركودا شديدا، لو كان عليها أن تمسح البلاط مثلا أو ترعى خمسة أطفال لأصبحت في صحة جيدة وأكثر سعادة. وهز السيد "**باين**" رأسه موافقا.

– وفي خلال عملي كممرضة مرت بي حالات عصبية كثيرة مشابهة. كانت الليدي "**جريل**" سعيدة لأن صحتها متدهورة، وكان عليَّ ألا أخفف من تهويلها، وأن أقوم بدوري على الوجه الأكمل ثم أتمتع بالرحلة قدر الإمكان.

– كلام معقول جداً.

– لكن يا سيد "**باين**" الأمور لم تعد كما كانت. إن ماتشكو منه الليدي "**جريل**" أصبح حقيقة وليس مجرد وهم.

– ماذا تعنين؟

– أنا أشك في أن هناك من يدس سما لليدي "**جريل**".

– ومنذ متى وأنت تشكين في ذلك؟

– منذ ثلاثة أسابيع.

– هل تشكين في شخص معين؟ وخفضت بصرها، ولأول مرة فقد صوتها نبرة الإخلاص:

– لا.

– إذن فسأقول لك أنا يا آنسة "**ماكنوتون**": أنت تشكين في شخص معين وهذا الشخص هو السير "**جورج جريل**".

– لا لا. لا يمكن أن أصدق هذا عنه. إنه كالطفل لا يمكن أن يكون قاتلا.

– ومع ذلك لاحظتِ أنه كلما كان السير "**جورج**" غائبا تحسنت صحة زوجته ولا يعاودها المرض إلا عند عودته. وصمتت ولم تجب. ثم أردف قائلا:

– في أي نوع من السم تشتبهين، زرنيخ؟

– زرنيخ أو أنتيموني أو شيء من هذا القبيل.

– وماذا فعلت حتى الآن؟

– أبذل كل جهدي لأراقب كل ما تأكله وتشربه الليدي "**جريل**".

– هل تظنين أن الليدي "**جريل**" تشتبه في شيء؟

– لا قطعا. إنها لا تشتبه في شيء.

– أنت مخطئة. إن الليدي "**جريل**" تشتبه في شيء. وبدت على الآنسة "**ماكنوتون**" الدهشة. وأردف السيد "**باين**":

– إن الليدي "**جريل**" قادرة على كتمان السر أكثر مما تتصورين. إنها امرأة تعرف كيف ترعى شؤونها جيداً.

– إن هذا يدهشني جداً.

– أريد أن أسألك سؤالا آخر، هل تحبك الليدي "**جريل**"؟

– لم أفكر في هذا الأمر. وقاطعها "**محمد**" وهو يدخل مسرعا:

– "**الليدي**" سمعت أنك عدت وتطلبك وهي تسأل عن السبب في عدم ذهابك إليها. ونهضت الآنسة "**ماكنوتون**" مسرعة، ونهض السيد "**باين**" أيضاً.

– هل يمكن أن نكمل حديثنا صباح غد في وقت مبكر؟

– نعم، سيكون ذلك أنسب وقت لأن الليدي "**جريل**" تنام إلى ساعة متأخرة، على كل حال سوف أكون في منتهى الحذر.

– وستكون الليدي "**جريل**" أيضا في منتهى الحذر. واختفت الآنسة "**ماكنوتون**" مسرعة.

ولم يرَ السيد "**باين**" الليدي "**جريل**" إلى ما قبل العشاء. كانت جالسة تدخن وتحرق ما كان يبدو كخطاب، ولم تعره أي اهتمام مما دل على أنها مازالت غاضبة منه. وبعد العشاء لعب البريدج مع السير "**جورج**" و"**باميلا**" و"**باسيل**"، ولكن الجميع كانوا

مشتتي الذهن وانتهى اللعب مبكرًا. وبعد بضع ساعات جاء "**محمد**" ليقول للسيد "**باين**":

– السيدة العجوز مريضة جدًّا، والممرضة خائفة عليها. سأحاول إحضار الطبيب.

وارتدى السيد "**باين**" ملابسه بسرعة ووصل إلى باب كابينة ليدي "**جريل**" في نفس الوقت مع "**باسيل وست**"، كان السير "**جورج**" و"**باميلا**" بالداخل، وكانت الآنسة "**ماكنوتون**" منهمكة مع مريضتها. وعند وصول السيد "**باركر باين**" كانت السيدة المسكينة في النزع الأخير، تقلص جسدها وتصلب مرة، ثم ارتخى على السرير. وأخذ السيد "**باين**" "**باميلا**" من ذراعها وسحبها خارج الكابينة. كانت الفتاة على وشك البكاء وهي تقول:

– إنه لمريع... مريع، هل.. هل..

– ماتت؟ أخشى ذلك. وتركها في رعاية "**باسيل**" ثم خرج السير "**جورج**" من الكابينة كالمشدوه.

– لم أظن أنها مريضة بالفعل، لم أظن ذلك قط ولا لدقيقة واحدة. ودخل السيد "**باين**" إلى الكابينة، كان وجه الآنسة "**ماكنوتون**" أبيض شاحبا. وسألته:

– هل أرسلوا في طلب طبيب؟

– نعم. ستريكنين؟

– قطعا؛ فالتقلصات تدل على ذلك، يا إلهي! لا يمكنني أن أصدق ما حدث. وانهارت على الكرسي وهي تبكي. وربت السيد "**باين**" كتفها.

ثم خطر له خاطر. خرج مسرعا من الكابينة وهرع إلى الصالون. كان في منفضة السجائر جزء صغير من الورقة لم يحترق تماما وقد ظهرت عليه بضع كلمات: قرص الأحلام، احرقي هذا. وغمغم السيد "**باين**":

– هذا فعلا مثير للاهتمام.

– كان السيد "**باين**" جالسا مع أحد أصدقائه في "**القاهرة**":

– إذن هذا هو الدليل.

– نعم. بالكامل يظهر أن الرجل كان مغفلا تماما.

– لا يمكن أن أصف السير "**جورج**" بالذكاء على أية حال.

– الليدي "**جريل**" طلبت قدحا من الكاكاو. وأعدته لها الممرضة. ثم عادت وطلبت الشيري ليضاف إليه وأحضر السير "**جورج**" الشيري، وبعد ساعتين ماتت الليدي "**جريل**" متسممة بالستريكنين. في كابينة السير "**جورج**" وجدنا لفافة ستريكنين ولفافة أخرى في جيب سترة السهرة التي كان يرتديها.

– دقيق للغاية، ومن أين جاء الستريكنين؟

– هناك بعض الشك حول هذا. كانت في حيازة الممرضة كمية منه تحتفظ بها من أجل الليدي "**جريل**" إذا دعت إليه حالتها. لكنها عارضت أقوالها مرتين؛ فقالت أولا إن رصيدها لم ينقص ثم عادت وقالت إنه ناقص. وعلق السيد "**باين**" على هذا بقوله:

– غريب منها ألا تكون متأكدة.

– في رأيي إن الاثنين كانا متفقين على المؤامرة، هناك نوع من التعاطف بينهما أيضا.

– من الجائز لكن إذا كانت الآنسة "**ماكنوتون**" تنوي قتلها فقد كان بإمكانها أن تقوم بالعملية بطريقة أفضل من هذا بكثير، إنها على قدر كبير من الكفاءة.

– لكن الموقف أمامك واضح. أعتقد أن السير "**جورج**" قد تورط ولن ينقذه شيء.

– حسنا، غير أنني سأري ماذا أستطيع أن أعمل. لا يمكن أن يكون هو القاتل، لا يمكن أبداً أبداً. وذهب السيد "**باين**" يسأل "**باميلا**"، كان وجهها شاحبا:

– إذن فمَن الذي فعلها؟ واقتربت منه "**باميلا**":

– هل تعرف مَن أظنه فعلها؟ هي التي قتلت نفسها؛ فقد كانت تصرفاتها بادية الغرابة مؤخرا، كانت تتخيل أشياء كثيرة.

– أي أشياء؟

– أشياء غريبة، "**باسيل**" مثلا كانت دائما تلمح أنه يحبها مع أن "**باسيل**" وأنا...

– نعم، لقد لاحظت ذلك.

– لكن ذلك كله كان في مخيلتها. كانت تريد أن تنتقم من "**جورج**" المسكين، فاخترعت القصة التي حكتها لك، ووضعت السم في كابينته وجيبه ثم سممت نفسها.

– مثل هذه الأشياء حدثت من قبل، أليس كذلك؟

– فعلا، لكنني أشك في أن الليدي "**جريل**" انتحرت؛ فلم تكن من النوع الذي يقدم على ذلك.

– وماذا عن أوهامها وتخيلاتها؟

– أحب أن أسأل السيد "**وست**" عن هذه التخيلات. كان السيد "**وست**" في غرفته وأجاب عن أسئلته كلها:

– لا أريد أن أتباهى ولكنها كانت مغرمة بي؛ لذلك لم أجرؤ على أن أخبرها بالعلاقة التي قامت بيني وبين "**باميلا**". كان يمكنها أن تأمر السير "**جورج**" بأن يفصلني من عملي.

– وهل تظن أن نظرية "**باميلا**" صحيحة؟

– أظن أنها محتملة. لكن صوته كان ينم عن الكثير من الشك، فقال "**باين**":

– لكن ليس بالقدر الكافي. يجب أن نجد حلا معقولا أكثر من ذلك. وصمت مفكرا حوالي دقيقتين ثم قال فجأة:

– أعتقد أن الاعتراف هو خير وسيلة. وأخرج ورقة وقلما وقدمهما له:

– يستحسن أن تكتبه بنفسك.

– بالله عليك ماذا تعني؟ وقال السيد "**باين**" برفق يكاد يشبه الحنان الأبوي:

– اسمع يا عزيزي، أنا أعرف كل شيء: كيف كنت تبادلها الحب ثم كيف بدأت هي تشك، ثم أحببت الفتاة الصغيرة الفقيرة، كيف دبرت مؤامرتك، السم البطيء، ممكن أن يمر الحادث على أنه اضطراب في الأمعاء، وإذا لم يثمر هذا يمكن توريط السير "**جورج**" في التهمة وخاصة وأنك دبرت توقيت الأزمات ليتفق مع وجود السير "**جورج**". ثم اكتشفت أنها قالت لي عن شكوكها ولزمك العمل السريع. فسرقت الستريكنين من الآنسة "**ماكنوتون**"، وضعت جزءا منه في كابينة السير "**جورج**" وفي جيب سترته ثم وضعت الباقي في قرص وأرسلته إليها مدعيا أنه "قرص الأحلام".

فكرة رومانسية... تناولت القرص بمجرد أن غادرتها الممرضة وكنت أنت متأكداً أنه لن يعلم بالأمر مخلوق آخر، لكنك ارتكبت خطأ واحد؛ فمن الغباء أن تطلب من امرأة أن تحرق الخطابات. فهن لا يفعلن ذلك أبداً، وأنا عندي كل خطاباتك لها بما فيها ذلك

الذي احتوى على قرص الأحلام. كان وجه "**باسيل وست**" قد اكفهر تماما وبدأ كفأر في مصيدة.

– لعنك الله! إذن فأنت تعرف كل شيء أيها الفضولي الملعون. وأنقذ السيد "**باركر باين**" من الاعتداء تدخل الشهود الذين كان قد استدعاهم احتياطيا، وكانوا واقفين يستمعون خلف الباب. وكان السيد "**باين**" يناقش القضية مرة أخرى مع صديقه.

– لم يكن لديَّ دليل سوى بقايا الخطاب المحترق. فخمنت القصة وجربتها معه ونفعت الحيلة. جاءت الحقيقة هذه المرة مصادفة بفضل قصة الخطابات، طبعا الليدي "**جريل**" كانت قد حرقت جميع الخطابات، لكن "**باسيل**" لم يعلم ذلك. كانت قطعًا سيدة غريبة. كنت حائرا جداً عندما أتت إليَّ تستشيرني؛ فكل ما كانت تبغى أن أقوله لها هو أن زوجها كان يدس لها السم، وفي هذه الحالة كانت ستهجره وتذهب مع "**وست**" لكنها أرادت أن تعرف أولا.

– لكن الفتاة المسكينة هي التي ستتعذب.

– سوف تتغلب على آلامها؛ فسنها صغير. ما أتمناه هو أن يستطيع السير "**جورج**" أن يمتع نفسه قليلا قبل أن يتقدم به العمر. طيلة السنوات العشر الماضية وهو يعامل كحشرة. أنا متأكد أن الآنسة "**ماكنوتون**" تستطيع إسعاده. وابتسم ثم تنهد قائلا:

– سأذهب متنكرًا إلى "**اليونان**"؛ فربما أتاح لي تنكري أن أتمتع بعطلتي.

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل الثاني

ولبراهام رائد شرطة

مادلين دي سارا: مساعدة المخبر وسكرتيرته

فريدا كليج: فتاة تعمل لحساب المخبر

الفصل الثاني

مشكلة جندي ضايقه الملل

تردد الرائد "**ولبراهام**" أمام مكتب السيد "**باركر باين**" ليقرأ – ربما للمرة العاشرة –

الإعلان المنشور في الجريدة الصباحية، وكان الإعلان بسيطا:

"هل أنت سعيد؟ إن لم تكن سعيداً فاستشر السيد "**باركر باين**"، 17 شارع "**ريتشموند**" ".

وأخذ الرائد نفسا طويلا ثم دفع الباب ودخل المكتب الخارجي، ونظرت إليه الفتاة الجالسة على الآلة الكاتبة مستفسرة. وقال الرائد "**ولبراهام**" وقد احتقن وجهه:

– أريد مقابلة السيد "**باركر باين**".

– تفضل من هنا. وتبع الفتاة داخلا إلى مكتب داخلي يجلس فيه السيد "**باركر باين**" أنيسا بشوشا:

– أهلا وسهلا. تفضل، ألا تجلس؟ والآن أية خدمة يمكنني أن أؤديها لك؟

– اسمي "**ولبراهام**".

– رائد أم عقيد؟

– رائد.

– وعائد لتوك من مهمة في الخارج؟ "**الهند**"؟ "**إفريقيا**" الشرقية؟

– "**إفريقيا**" الشرقية.

– أعتقد أنها مكان جميل. حسنا، هأنت قد عدت إلى الوطن وذلك لا يعجبك، أليس هذا ما يضايقك؟

– هذا هو ما يضايقني بالضبط ولكن كيف عرفت ذلك... وأشار السيد "**باركر باين**" بيده مقاطعا:

– إن مهمتي أن أعرف. لقد قضيت خمسة وثلاثين عاما من عمري أجمع الإحصائيات في إحدى الإدارات الحكومية، والآن وقد أحلت إلى التقاعد خطر لي أن أستفيد من خبرتي بطريقة جيدة، والأمر في منتهى البساطة؛ فيمكن تقسيم التعاسة إلى خمسة أبواب لا أكثر! صدقني! ومتى عرفت سبب الداء فإن علاجه لا يصبح مستحيلا. إنني أضع نفسي مكان الطبيب، وأول شيء يقوم به الطبيب هو تشخيص علة المريض، ثم يصف له العلاج الملائم، طبعا هناك حالات لا يجدى معها أي علاج، وعندئذ أقول بكل صراحة إنه ليس هناك أمل في الشفاء، ولكنني إذا قبلت قضية كان معنى ذلك أن علاجها شبه أكيد. وقال الرائد:

– إن كل ما تقوله صحيح، كل ما يضايقني هو الملل، نعم، الملل والثرثرة التي لا تنتهي عند المسائل التافهة التي تجري في القرية، لكن ماذا أستطيع أن أفعل حيال ذلك؟ عندي بعض المال إلى جانب المعاش، عندي كوخ لطيف في ضاحية "**كوبهام**" لكنني لا أمتلك إمكانيات الصيد والقنص. لست متزوجا. كل جيراني اناس طيبون لكن إدراكهم لا يتعدى حدود الجزر البريطانية.

– تعني باختصار أنك تجد الحياة مملة.

– مملة إلى درجة شنيعة.

– وأنت تحب الإثارة، ربما المخاطر أيضا. وهز الرائد كتفيه:

– لا يوجد شيء من هذا القبيل في بلادنا الصغيرة هذه. فقال السيد "**باركر باين**" في بلهجة جدية:

– مهلا... أنت مخطئ في هذا؛ فهناك كثير من الأخطار.. كثير من الإثارة هنا في "**لندن**" بالذات إذا كنت تعرف أين تلتمسها. أنت لم ترَ الحياة الإنجليزية إلا من سطحها الخارجي، هادئة، رتيبة سهلة لكن هناك الجانب الآخر منها. وإذا أردت يمكنني أن أكشف لك هذا الجانب الآخر.

وحدق إليه الرائد "**ولبراهام**" بتمعُّن. كان هناك شيء يبعث على الثقة بالسيد "**باين**" هذا؛ فقد كان ضخما في غير بدانة، وكان أصلع ذا ملامح أرستقراطية، وعلى عينيه الدقيقتين الحانيتين نظارة طبية سميكة، ومظهره العام يوحي بأنه شخص يمكن الاعتماد عليه. وقال السيد "**باين**":

– لكن يجب أن أقول لك محذرا، إن هناك عنصر المخاطر في الموضوع. وبرقت عينا الرائد:

– وهذا ما يلائمني. ثم أضاف باقتضاب:

– وأجرك عن هذه العملية؟ وقال السيد "**باين**":

– أجري هو خمسون جنيها. تدفع مقدما. وإذا وجدت نفسك خلال الشهر لاتزال في نفس حالة الملل أعدت المبلغ إليك. وفكر "**ولبراهام**" لحظة ثم قال:

– هذا يبدو معقولا. سأحرر لك شيكا الآن. وتم تبادل الشيك والإيصال وضغط السيد

"**باين**" على زر الجرس الموجود في مكتبه ثم قال:

– الساعة الآن الواحدة، سأطلب منك أن تصحب فتاة إلى الغداء. وفتح الباب في هذه اللحظة فهتف "**باين**":

– عزيزتي "**مادلين**"، دعيني أقدم لك الرائد "**ولبراهام**" الذي سيصحبك الآن للغداء. وتفرس "**ولبراهام**" في وجه الفتاة بدهشة، وهو أمر لم يكن غريبا على الإطلاق... كانت سمراء طويلة، ذات عينين أخاذتين، وأهداب سوداء طويلة، فاتنة الوجه، وفمها مكتنز وشفتاها قرمزيتان، ثوبها الأنيق يكشف رشاقة قوامها، كانت رائعة من رأسها حتى قدميها! وغمغم الرائد "**ولبراهام**":

– أنا سعيد جداًّ. وقدمها له السيد "**باركر باين**":

– الآنسة "**دي سارا**". وقالت الآنسة "**دي سارا**" بصوت خفيض:

– إنه تلطف منك أن تدعوني إلى الغداء. وقال السيد "**باركر باين**":

– لديَّ عنوانك هنا، وسوف تصل إليك تعليمات أخرى مني صباح غد. وغادر الرائد "**ولبراهام**" المكتب وفي صحبته "**مادلين**" الجميلة الفاتنة. كانت الساعة قد بلغت الثالثة عندما عادت "**مادلين**" إلى المكتب. ونظر إليها السيد "**باركر باين**" مستفسرا:

– ماذا حدث؟ وهزت "**مادلين**" رأسها:

– إنه متوجس مني جداًّ، يظن أنني امرأة لعوب.

– هذا ما توقعته تماما. هل نفذت التعليمات؟

– أجل، أخذنا نتحدث عن رواد المطعم الآخرين.. وعرفت أن ما يروقه في المرأة هو أن تكون شقراء، ذات عينين زرقاوين، رقيقة البنية، وغير مفرطة في الطول. قال السيد "**باين**":

– هذا أمر ليس بالعسير. أحضري لي ملف "**ب**" ولنفحص ما لدينا من قوائم في الوقت الحاضر. ومر بإصبعه على القائمة حتى توقف عند اسم معين.

– "**فريدا كليج**". أجل أظن أن "**فريدا كليج**" تستطيع أن تؤدي المهمة، يستحسن أن أحادث السيدة "**أوليفر**" بشأنها. وفي اليوم التالي تسلم الرائد "**ولبراهام**" مذكرة بالبريد تقول:

"في يوم الاثنين القادم، الساعة الحادية عشرة توجه إلى "**إيجلمونت**"، شارع "**فرايرزلين**" في حي "**هامستيد**"، واسأل عن السيد "**جونز**". قدم نفسك إليه على أنك من طرف شركة "**جوافا**" للملاحة".

ونفذ الرائد "**ولبراهام**" التعليمات.. وفي يوم الاثنين، وكان يوافق يوم عطلة رسمية، توجه إلى العنوان المذكور، ولكن قبل أن يصل إليه حدث شيء... في هذا اليوم بدا أن كل المتزوجين على ظهر الأرض كانوا في طريقهم إلى "**هامستيد**"، فاختنق الرائد "**ولبراهام**"، أو كاد في زحام قطار الأنفاق، ووجد من الصعب عليه أن يهتدي إلى البيت الذي يقصده في "**فرايرزلين**".

و"**فرايرزلين**" هذه كانت عبارة عن زقاق مسدود... طريق مهجور مملوء بالركام، وعلى جانبيه منازل ترتد مسافة إلى الوراء بعيدة عن الطريق، وكانت البيوت كبيرة المساحة لكن في حالة يرثى لها. ومضى "**ولبراهام**" يحاول جاهدا أن يقرأ الأسماء التي كادت تُمحى عندما سمع شيئا جعله يتسمر في مكانه، صوت ضعيف متحشرج نصف مختنق، صادر من مكان قريب.

وسمع "**ولبراهام**" الصوت مرة أخرى، واستطاع بجهد أن يميز الكلمة: (النجدة)، وبعد تردد لم يزد على لحظة، دفع الرائد "**ولبراهام**" الباب وجرى نحو مصدر الصوت، وهناك في ركن الحديقة المهملة وجد فتاة تقاوم يائسة رجلين ضخمين، كانت تناضل بشجاعة وتتلوى بجسدها وتركل بقدميها، وكان أحد الرجلين يكمم فمها بيده بينما هي تحاول جاهدة أن تخلص رأسها من قبضته.

ولم يلحظ أحد منهم "**ولبراهام**" وهو يقترب منهما لانهماكهما في المعركة مع الفتاة؛ فلم يشعرا بوجوده إلا حين استقرت قبضته على وجه الرجل الذي يكمم فم الفتاة لتطرحه أرضا، وكانت المفاجأة كفيلة بأن تجعل الآخر يتخلى عن الفتاة ويستدير نحو "**ولبراهام**"، لكن "**ولبراهام**" كان متهيئا له، وفي لمح البرق هوت قبضته على فكه، فانطرح هو الآخر أرضا، واستدار "**ولبراهام**" نحو الرجل الأول لكن بدا أنهما قدرا الموقف فاندفعا الواحد تلو الآخر نحو باب الحديقة، وبدأ "**ولبراهام**" يجري خلفهما، لكنه عاد فاستدار نحو الفتاة التي كانت تقف مستندة إلى شجرة. وقالت الفتاة وهي تبكي:

– أشكرك. أشكرك جداً. إنه أمر فظيع. ونظر "**ولبراهام**" لأول مرة إلى الفتاة التي أنقذها لتوه، كانت تبدو في الحادية والعشرين. ذات شعر أشقر. وعيناها زرقاوان، وكانت شاحبة اللون، ولكنها جميلة. قالت الفتاة:

– ترى ماذا كان يحدث لو لم تصل أنت؟ أخذ الرائد "**ولبراهام**" يطمئنها:

– لا عليك، كل شيء على ما يرام الآن لكن يستحسن أن تنصرفي؛ فربما عاد هذان المجرمان. وابتسمت الفتاة ابتسامة شاحبة:

– ما أحسبهما يتجرآن على العودة، أعني بعد ما نالاه على يديك. لقد كنت غاية في الروعة. وكانت نظرة الإعجاب التي شملته بها الفتاة كفيلة بأن تجعله يحمر خجلا:

– إطلاقا، هذا شيء بسيط يحدث كل يوم.. فتاة يضايقها الرجال، هل تستطيعين السير؟ يمكنك أن تتأبطي ذراعي؛ فإني لا أجهل الفزع الذي تسببه مثل هذه المواقف.

– أنا بخير الآن. قالتها الفتاة ومع ذلك تأبطت ذراع "**ولبراهام**"، كانت ترتجف قليلا، ونظرت خلفها إلى المنزل الذي هوجمت في حديقته.

– لا أستطيع أن أفهم. من الواضح أن هذا المنزل خالٍ ومهجور تماما.

– إنه خالٍ وملائم تماما. وأخذ الرائد يتفحص المنزل ونوافذه المغلقة ومنظره المقبض المهجور. وقالت الفتاة:

– ومع ذلك فهذا "**هوايت فرايرز**"، إنه الاسم الموجود على المدخل، وهذا البيت الذي أقصد إليه.

– لا تفكري في هذا الآن، دعينا نستقل سيارة أجرة ونذهب إلى مشرب نتناول فيه قدحا من القهوة. ووصلا إلى شارع مطروق واستقلا السيارة.

– لا تحاولي أن تتكلمي الآن، فقط استرخي واستريحي، لقد مررتِ بتجربة عصيبة. وابتسمت له بامتنان.

– وبالمناسبة اسمي "**ولبراهام**".

– وأنا اسمي "**كليج**"، "**فريدا كليج**". وبعد عشر دقائق كانت "**فريدا**" تحتسي القهوة وهي تنظر شاكرة إلى وجه منقذها، قالت:

– كل هذا يبدو لي كحلم... كابوس، منذ فترة وجيزة كنت أتمنى أن يحدث شيء أي شيء لكنني لا أحب المغامرات.

– احكي لي كيف حدث ذلك.

– لكي أقص عليك أخشى أنه يجب أن أتكلم كثيرا عن نفسي. فقال "**ولبراهام**" وهو يحني رأسه:

– هذا موضوع شائق للغاية.

– أنا يتيمة. كان والدي قبطان سفينة ومات وأنا في الثامنة، أما أمي فماتت هي أيضا منذ ثلاث سنوات، وأنا أعمل في المدينة، موظفة في شركة الغاز، وفي الأسبوع الماضي وجدت عند عودتي إلى منزلي شخصا في انتظاري قال لي إنه محامٍ، السيد "**ريد**" من "**ملبورن**". كان الرجل في غاية الأدب، سألني كثيرا عن عائلتي وقال إنه كان يعرف أبي منذ سنوات بعيدة. وكان يقوم له ببعض الأعمال القانونية ثم كاشفني بسبب زيارته؛ فقال إنه من المحتمل أن أظفر بشيء من المال نتيجة بعض المعاملات المالية التي قام بها أبي قبل أن يموت بعدة سنوات، طبعا اندهشت جداً لهذا.

فقال لي إنه ليس من المستبعد ألا أكون قد سمعت أي شيء من هذا القبيل؛ لأن أبي لم يكن يهتم إلى هذا الحد بالمعاملات المالية، لكن الأمور تطورت بشكل غير متوقع، ثم قال أيضا إنه لكي أحصل على ما يخصني، يجب أن تكون في حوزتي أوراق معينة هي جزء من تركة والدي. ثم سألني إذا كنت أحتفظ بهذه الأوراق.

قلت له إن والدتي على ما أذكر وضعت كل ما يخص أبي في صندوق كبير، وقد قلبت محتوياته لكنني لم أجد شيئًا يثير الانتباه، فقال إنه من المحتمل ألا تلفت نظرك تلك الأوراق؛ لأن منظرها لا يدل إطلاقا على أهميتها.

أحضرت له الأوراق التي وجدتها في الصندوق، فقال إنه يجب أن يدرسها بإمعان ليعرف ما إذا كانت متعلقة بالتركة أم لا، ثم قال إنه سيتصل بي إذا ما جدّ شيء.

وفي يوم السبت الماضي جاءني منه خطاب يطلب مني فيه الحضور إلى منزله لنبحث الأمر وأعطاني العنوان: البيت المعروف باسم "**فرايرز**"، "**فرايرزلين**" "**هامستيد**"، وكان علي أن أقابله هناك في الساعة الحادية عشرة إلا ربعا هذا الصباح.

وتأخرت كثيرا وأنا أبحث عن المنزل حتى اهتديت إليه، وما أن دلفت من المدخل وسرت في الحديقة تجاه المنزل حتى هاجمني هذان الشخصان، غطى أحدهما فمي لكني استطعت أن أخلص رأسي من قبضته لحظة صرخت فيها أطلب النجدة، من حسن الحظ

أنك سمعتني، ولولاك... وصمتت لكن عينيها كانتا تعبران عن أحاسيسها بطريقة أبلغ من الكلام.

– أنا سعيد جداً لأني كنت مارا في هذا الوقت. ليتني أستطيع أن أضع يدي على هذين الوغدين. هل أنت متأكدة أنك لم تريهما من قبل؟ فهزت رأسها بالنفي وسألته:

– ما معنى ذلك؟

– من العسير أن نعرف هذا، وكان من المؤكد أن هناك شخصا يحتاج إلى شيء معين موجود في أوراق والدك، وأعتقد أن هذا الشخص خدعك بقصة ملفقة ليضع يده على الأوراق، والظاهر أنه لم يعثر على ضالته.

– هذا عجيب؛ فعند عودتي إلى المنزل يوم السبت ظننت أن هناك من عبث بأمتعتي، وقد ظننت أنها صاحبة المنزل المعروفة بشدة فضولها. لكن الآن...

– هذا على الأرجح ما حدث، تمكن أحدهم من دخول غرفتك، وفتشها ولكنه لم يجد ما يبحث عنه، والظاهر أنه رجح أنك تعرفين أهمية هذه الأوراق أيا كانت، وأنك تحملينها معك أينما ذهبت، فاستدرجك إلى هذا المكان. وشهقت "**فريدا**":

– لكن بالله ماذا يمكن أن يكون في هذه الأوراق؟

– لا أدري لكن من الواضح أنها تهمه جداً، وإلا لما لجأ إلى مثل هذه الأساليب.

– إن هذا الأمر يبدو بعيدا عن التصديق.

– ولماذا؟ لقد كان والدك بحارا، سافر إلى أماكن مختلفة وبعيدة، وربما كان قد وقع على شيء ثمين لم يدرِ قيمته إذ ذاك.

– هل تعتقد هذا حقًا؟

– بكل تأكيد. السؤال الآن هو ما هي خطوتنا التالية؟ لا أعتقد أنك تريدين إبلاغ الشرطة؟

– لا... أرجوك.

– حسنا، أعتقد أن إبلاغ الشرطة لن يفيدنا بشيء وقد يسبب لك بعض المضايقات. دعينا الآن نتناول الغداء في مكان ما، ثم اصطحبك بعد ذلك إلى منزلك حيث نحاول مرة أخرى البحث عن هذه الأوراق، أنا واثق بوجودها في مكان ما.

– ربما يكون أبي قد أعدم هذه الأوراق بنفسه.

– هذا جائز، لكن الآخرين لا يعتقدون هذا، وربما كان هناك بعض الأمل في العثور عليها.

– هل تعتقد أن هذه الأوراق قد ترشدنا إلى كنز مخبإ؟ صاح الرائد "**ولبراهام**" بحماس:

– بحق السماء ربما. لكن الآن دعينا نذهب للغداء.

كان الغداء شهيًّا، وأخذ "**ولبراهام**" يقص على "**فريدا**" تفاصيل حياته في شرق "**إفريقيا**"، وبعد الغداء اصطحبها إلى منزلها في سيارة أجرة. كانت تقطن بالقرب من ضاحية "**نوتنج هيل جيت**"، وعند وصولهم تحدثت "**فريدا**" مع صاحبة المنزل برهة ثم صحبت "**ولبراهام**" إلى الطابق الثاني؛ حيث كانت تقيم في شقة صغيرة. قالت له:

– الظاهر أن الأمر كما ظننا تماما؛ فقد جاء شخص هنا صباح السبت، وذكر لصاحبة المنزل أن هناك عيبا في توصيلة الأسلاك الكهربائية في شقتي وأمضى بها بعض الوقت.

– دعيني أرى صندوق والدك. وقدمت "**فريدا**" الصندوق إليه قائلة:

– إنه فارغ كما ترى وإني متأكدة أنه لا توجد أية أوراق في مكان آخر. لقد كانت أمي تحتفظ بكل شيء هنا. وفحص "**ولبراهام**" الصندوق بإمعان، وبعد برهة صاح متعجبا:

– هناك شق في بطانة الصندوق. وأدخل يده برفق في الشق وأخذ يتحسس ما بداخله حتى اصطدمت أصابعه بشيء فأخرجه بحرص شديد، كان عبارة عن ورقة قذرة مطوية عدة مرات، وبسطها "**ولبراهام**" بعناية على المنضدة بينما أخذت "**فريدا**" ترقبه باهتمام شديد. ثم ما لبثت أن صرخت في أسى:

– إنها لا تحتوي إلا على علامات غريبة.

– لا، إنها مكتوبة باللغة السواحلية. عجبا! إنها لغة الوطنيين في شرق "**إفريقيا**". قالت "**فريدا**":

– شيء عجيب حقًّا. وهل تستطيع قراءتها؟

– إلى حد ما. واقترب من النافذة ليقرأ الورقة في الضوء. وسألته "**فريدا**" في انفعال:

– هل تحتوي على شيء؟ وقرأ "**ولبراهام**" الورقة مرتين، ثم قال:

– ها هو كنزك المخبأ.

– كنز مخبأ؟ أصحيح هذا؟ ذهب وأشياء أخرى؟

– لا، ليس هكذا تماما. الورقة تشير إلى مكان يوجد فيه كمية كبيرة من العاج.

– العاج؟

– نعم، إنك تعلمين أن هناك قانونا يحدد عدد الأفيال التي يمكن اصطيادها، والظاهر أن أحد الصيادين خالف هذا القانون على نطاق واسع. ويبدو أيضا أن السلطات كانت تتعقبه، فخبأ ثروته من العاج في مكان ما.. كمية ضخمة من العاج، وهذه الرقعة تحدد مكانه بالتقريب. اسمعي، يجب أن نذهب معا للبحث عنه.

– أتعتقد أن هذا سوف يدر عليَّ الكثير من المال؟

– هناك ثروة لا بأس بها في هذه العملية.

– لكن كيف استطاع أبي الحصول على هذه الورقة؟ وهز "**ولبراهام**" كتفيه:

– ربما حضرت الوفاةُ الصياد أو شيء من هذا القبيل، فكتب هذه الورقة باللغة السواحلية ليبعد عنها المتطفلين، وأعطاها لوالدك الذي كان صديقا له على الأرجح، ولما كان والدك لا يستطيع قراءتها فإنه لم يعرها أي اهتمام، هذا طبعا مجرد تخمين ولكنه، على ما أعتقد، قريب جداً من الصواب.

– أعتقد أن هذا مثير لدرجة الجنون.

– المهم الآن هو ما نفعله بهذه الورقة الثمينة، من المستحسن ألا نتركها هنا؛ فربما يعودون للبحث مرة أخرى. هل تثقين بي إلى درجة تجعلك تتركينها معي؟

– طبعا أثق بك، لكن ألا تعرض نفسك للخطر لو احتفظت أنت بها؟

– أنا رجل شديد المراس؛ فلا تخشي شيئا. وطوى الورقة بعناية، ووضعها في محفظته

– هل يمكنني أن أحضر لرؤيتك مساء غد؟ ربما أكون قد فكرت في خطة ما وبحثت عن المكان المذكور في الخرائط الموجودة عندي. في أي وقت تعودين من عملك؟

– حوالي السادسة والنصف.

– رائع! سنعقد مؤتمرا صغيرا أنت وأنا، وقد تسمحين لي بان أدعوك إلى العشاء، يجب أن نحتفل بهذه المناسبة. الوداع إذن وإلى اللقاء غدا.

في تمام السادسة والنصف من اليوم التالي كان "**ولبراهام**" يدق الجرس الخارجي للمنزل الذي تقطنه "**فريدا كليج**"، وفتحت الباب خادمة وأخبرته بان الآنسة "**كليج**" في الخارج.

– إذن فسأعود بعد فترة. ومضى يتلكأ في الشارع خارج المنزل مؤملا أن يراها عند عودتها، ومضى الوقت.. السابعة.. السابعة والربع، ولا أثر لـ"**فريدا**" واستبد القلق به وعاد إلى المنزل ودق الجرس من جديد، وفتحت له الخادمة مرة أخرى.

– أنا على موعد مع الآنسة "**كليج**"، هل أنت متأكدة أنها لم تحضر أو حتى لم تترك لي رسالة؟

– هل أنت الرائد "**ولبراهام**"؟

– نعم.

– هناك رسالة لك. ومزق "**ولبراهام**" غلاف الرسالة على عجل وقرأ:

عزيزي الرائد "**ولبراهام**":

حدث شيء غريب، لا أستطيع الكتابة أكثر من هذا الآن. هل يمكنك الحضور فورا إلى "**هوايت فرايرز**" بعد أن تقرأ هذا؟

المخلصة

"**فريدا كليج**"

وقطب "**ولبراهام**" حاجبيه وهو يفكر بسرعة وأخرج خطابا من جيبه بلا وعي وكان معنونا إلى ترزيه الخاص، وسأل الخادمة:

– هل أجد عندك طابع بريد؟

ودخلت الخادمة المنزل وعادت بعد برهة ومعها الطابع، ونقدها "**ولبراهام**" ثمنه، ثم سار في اتجاه محطة قطار الأنفاق بعد أن ألقى الظرف في صندوق البريد. كان يشعر بقلق شديد بعد قراءة خطاب "**فريدا**". ما السبب الذي يدعو الفتاة إلى الذهاب بمفردها إلى المكان نفسه الذي تعرضت فيه للاعتداء في اليوم السابق مباشرة؟ طبعا هذا شيء بعيد عن الحكمة تماما. هل قابلت المدعو "**ريد**"؟ هل استطاع أن يوحي إليها بالثقة، ويستدرجها من جديد إلى "**هامستيد**"؟

كانت الساعة قد قاربت السابعة والنصف... لو أنها أوضحت موقفها قليلا أو ألمحت إليه بأي شيء، ثم إن طريقة كتابة الخطاب مخالفة تماما لطبيعة "**فريدا**". كانت الساعة قد أشرفت على الثامنة عندما وصل إلى "**فرايرزلين**"، كان الظلام يسود الحي، ولم يكن هناك مخلوق في الشارع. دفع باب الحديقة برفق حتى لا يحدث صوتا ووجد الممر

مهجورا والبيت مظلما، وسار بحذر وهو ينظر حوله بتمعن حتى لا يفاجئه أحد. وفجأة توقف... ظهر بصيص من الضوء من خلال إحدى النوافذ، ودام لحظة... قطعا كان هناك شخص ما بالداخل.

وبحذر شديد تلصص "**ولبراهام**" دائرا حول المنزل حتى عثر على نافذة مفتوحة بالدور الأرضي، وتأكد تماما أن الغرفة فارغة قبل أن يقفز إلى الداخل، كانت الغرفة تؤدي إلى المطبخ الذي كان بدوره خاليا.

وكان المطبخ يؤدي إلى الجزء الأمامي من المنزل، وتسمَّع "**ولبراهام**" برهة حتى تأكد تماما انعدام الأصوات، ودلف خارجا من المطبخ على أطراف أصابعه. كان هناك بابان أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار. واختار الباب الأيمن وفتحه برفق وخطا إلى الداخل وأضاء البطارية وأخذ يتفحص الغرفة. كانت عارية من أي أثاث. وفجأة شعر بشيء خلفه فاستدار بسرعة، لكن بعد فوات الوقت لأن شيئا صلبا هوى على مؤخرة رأسه فسقط فاقد الوعي!

لم يستطع "**ولبراهام**" أن يحدد كم من الوقت مضى وهو فاقد الوعي. كان رأسه مصابا بصداع شديد عندما فتح عينيه، حاول أن يتحرك لكنه وجد نفسه موثقا جيدا بالحبال، وأخذ ينظر حوله على الضوء الخافت المنبعث من مصباح صغير مدلى من السقف، كان في قبو صغير، وفجأة شعر بغصة في حلقه عندما وجد "**فريدا**" على بعد خطوات منه، مقيدة بالحبال مثله، كانت عيناها مغمضتين وأنفاسها خافتة، ثم بدأت تستعيد الوعي ببطء وهو يحدق إليها. وما إن وقعت نظراتها الحائرة عليه حتى هتفت في فرح:

– أنتَ؟ هنا؟ ماذا حدث؟

– سقطتُ في الفخ بكل غباء، هل أرسلت إليَّ رسالة تطلبين مني الحضور إلى هنا؟

وفغرت الفتاة فمها في دهشة:

– أنا؟ أنت الذي بعثت إليّ برسالة تطلب مني المجيء إلى هذا المكان.

– أنا لم أبعث إليك بأي شيء.

– لقد تسلمتها في المكتب وفيها تطلب مني أن أقابلك هنا بدلا من موعدنا في منزلي.

– نفس الطريقة التي اتبعوها معي.

– آه! إذن كان كل هدفهم...

– أن يحصلوا على الورقة. أعتقد أنهم تتبعونا أمس.

– وهل حصلوا عليها؟

– لا أستطيع أن أحكم ويداي مقيدتان. ثم فزع كلاهما عند سماع صوت لم يعرفا مصدره. قال الصوت:

– لقد حصلت عليها، مع شكري الجزيل. وارتجف كلاهما عند سماع الصوت وهمست "**فريدا**":

– السيد "**ريد**"! وعاد الصوت يقول:

– السيد "**ريد**" هو أحد أسمائي يا فتاتي العزيزة، هناك أسماء أخرى كثيرة، على العموم أنا آسف لأنكما زججتما بنفسيكما في خططي، وهذا شيء لا يمكن أن أسمح به. اكتشافكما هذا المنزل شيء لا يمكن التغاضي عنه، ربما لم تبلغا الشرطة حتى الآن. لكن يحتمل أن تفعلا ذلك في المستقبل، أخشى أنني لا أستطيع أن أثق بكما إطلاقا. قد تعداني بالكتمان لكن الوعود نادرا ما يوفى بها. وهذا المنزل مفيد جداً لي؛ فهو المكان الذي أقوم فيه بجميع عملياتي؛ ولذلك يؤسفني أن أقول إنكما لن تغادرا هذا المكان إلا إلى عالم آخر، آسف جداً لهذا، لكنه إجراء ضروري. وسكت الصوت برهة ثم أضاف:

– لن تكون هناك دماء؛ فأنا أكره سفك الدماء. هناك طريقة أخرى بسيطة جداً، وعلى ما أعلم لا تسبب ألما على الإطلاق، على كل حال عليَّ أن أذهب الآن... الوداع. وصاح "**ولبراهام**":

– اسمع، يمكنك أن تفعل بي ما شئت، لكن هذه الفتاة لا شأن لها، لا شأن لها إطلاقا، ولن يضيرك أي شيء إذا تركتها تذهب. ولم يتلقَّ ردا على الإطلاق، وفجأة صرخت "**فريدا**":

– الماء... الماء. ولوى "**ولبراهام**" جسده ليتمكن من رؤية المكان الذي ركزت فيه "**فريدا**" بصرها، ومن ثقب صغير قريب من السقف كان ينساب خيط متصل من الماء يزداد كثافة، وصرخت "**فريدا**" في هلع:

– إنهم يريدون أن نموت غرقا. وبدأت حبات العرق تظهر على جبين "**ولبراهام**". وقال:

– لكنهم لم ينتهوا منا بعد. سوف نصرخ في طلب النجدة؛ فمن المؤكد أن شخصا ما سيسمعنا. هلمي لنصرخ سويا. وبدآ يصرخان معا بأعلى صوتيهما حتى بح حلقاهما تماما. قال "**ولبراهام**" في يأس:

– لا فائدة على الإطلاق، قطعًا الأبواب عازلة للصوت.

– كل هذا بسببي. أنا السبب في وضعك في هذا المأزق.

– دعك من هذا يا صغيرتي. أنا قلق عليك أنت. طيلة عمري وأنا في مآزق لكنني تمكنت دائما من الخروج منها. أرجوك، لا تفقدي الأمل. سوف أجد طريقة ما لأخرجك من هذه الورطة؛ فأمامنا وقت طويل، بالطريقة التي يتسرب بها الماء لن يمتلئ المكان قبل مضي ساعات.

– أنت إنسان مدهش، لم أعرف في حياتي إنسانا مثلك إلا في الكتب والروايات.

– ليس إلى هذا الحد. والآن لنحاول أن نفك هذه الحبال اللعينة. وبعد ربع ساعة من الجهد والمحاولات، بدأ "**ولبراهام**" يشعر بأن الحبل الموثوق به أخذ يرتخي قليلا؛ فراح يحني رأسه وهو يرفع رسغيه قدر الإمكان حتى أمسك العقدة بأسنانه، وبعد إطلاق يديه أصبح كل شيء سهلا. كان جسمه مصابا بكدمات وتقلصات، لكنه نسي كل هذا وهو ينحني على الفتاة ليحل وثاقها، ولم يكن منسوب الماء قد تعدى أقدامهما.

– والآن لنخرج من هذا المكان. كان باب القبو مغلقا لكن بعد بضع دفعات من كتف "**ولبراهام**" القوية انهار الباب من مفصلاته. كان أمامهما سلم طويل في آخره باب آخر سميك، لكنه لم يكن مغلقا؛ ففتحه "**ولبراهام**" بحذر ونظر من خلاله متلصصا ثم أشار إلى "**فريدا**" أن تتبعه، وفي لحظة كانا قد دلفا من خلال المطبخ إلى الحديقة ومنها إلى الخارج. وتنهدت "**فريدا**":

– يا له من موقف عصيب! واحتواها "**ولبراهام**" بين ذراعيه برفق:

– يا حبيبتي المسكينة، لكنك كنتِ شجاعة جداً. "**فريدا**"، يا ملاكي العزيز، هل يمكنك... أقصد هل ترغبين... أعني أنني أحبك يا "**فريدا**" وأرغب الزواج بك. وبعد

فترة من الصمت المعبرة تماما عن شعورهما أضاف "**ولبراهام**" :

– وبالإضافة إلى ذلك مازلنا نحتفظ بسر مخبإ العاج.

– لكنني اعتقدت أنهم حصلوا عليه؟ وضحك الرائد بجذل:

– هذا بالضبط ما لم يستطيعوا أن يفعلوه. لقد كتبت نسخة مزورة من الورقة قبل أن أذهب إلى منزلك هذا المساء، أما الورقة الحقيقية؛ فقد وضعتها في خطاب وأرسلته على عنوان الترزي الخاص بي. إن ما حصلوا عليه هو النسخة المزورة وأرجو أن يتمتعوا بها! هل تدرين ماذا سنفعل يا حبيبتي؟ سنمضي شهر العسل في شرق "**إفريقيا**"، وهناك نبحث عن مخبإ العاج.

❖❖❖❖❖

ترك السيد "**باركر باين**" مكتبه وصعد طابقين إلى غرفة السيدة "**أوليفر**" الكاتبة المشهورة والتي تعمل الآن في مكتب "**باين**"، وطرق السيد "**باين**" الباب ودخل. كانت السيدة "**أوليفر**" تجلس إلى مكتبها المزدحم بآلة كاتبة، وأوراق مكتوبة ومبعثرة وكيس كبير مملوء بالتفاح.

– قصة جميلة يا سيدة "**أوليفر**".

– وهل سار كل شيء على ما يرام؟

– تماما، لكن الجزء المتعلق بالماء والقبو، هل يمكننا في المستقبل أن نستخدم شيئا أقل شيوعا من هذا؟ هزت السيدة "**أوليفر**" رأسها:

– قطعا لا؛ فالناس معتادوه قراءة مثل هذه الرسائل... الماء في القبو، الغاز السام، وهكذا، ومعرفتهم بها يزيد من إثارتهم عندما يحدث هذا لهم شخصيًا. الناس محافظون بطبيعتهم ويعشقون ما هم معتادون. وقال السيد "**باركر باين**" في استسلام:

– أنت أكثر خبرة مني بهذا. وكم كانت التكاليف؟ وسحبت السيدة "**أوليفر**" ورقة من أمامها وقالت:

– قليلة نسبيا؛ فالرجلان اللذان هاجما الفتاة، أعني "**برسي**" و"**جيري**"، طلبا مبلغا صغيرا من المال، و"**لوريمر**" الممثل أدى دور السيد "**ريد**" لقاء خمسة جنيهات، أما الصوت في القبو فكان طبعا مسجلا على أسطوانة.

– هذا المنزل في "**هوايت فرايزز**" مدهش في الحقيقة، لقد اشتريته بمبلغ ضئيل وحتى الآن استخدمته أكثر من عشر مرات في حالات مشابهة.

– آه! نسيت، لقد تقاضى "**جوني**" خمسة شلنات.

– ومن هو هذا الـ"**جوني**"؟

– الفتى الذي صب الماء في القبو.

– وبهذه المناسبة أين تعلمت اللغة السواحلية يا سيدة "**أوليفر**"؟

– إني لا أعرف كلمة منها.

– من المتحف البريطاني إذن؟

– أبداً، من أحد مكاتب الاستعلامات، إنما الشيء الوحيد الذي يقلقني هو أنهما لن يعثرا على مخبإ العاج في شرق "**إفريقيا**". ورد عليها السيد "**باين**":

– لا يستطيع المرء أن يحصل على كل شيء في الدنيا. يكفيهما شهر العسل.

❖❖❖❖❖

كانت السيدة "**ولبراهام**" جالسة على الكرسي المريح على سطح السفينة بينما انهمك زوجها في كتابة خطاب، وسأل زوجته:

– ما هو تاريخ اليوم يا عزيزتي؟

– السادس عشر.

– السادس عشر؟ يا إلهي!

– لماذا؟ ماذا حدث؟

– لا شيء، لقد تذكرت شخصا ما.

هناك أشياء لا يبوح بها الإنسان مهما كان سعيدا في زواجه. وفكر الرائد "**ولبراهام**" في نفسه: كان يجب أن أذهب إلى مكتب هذا المخبر الخاص، وأستعيد نقودي، لكن الواقع أنني أنا الذي أخللت بالاتفاق؛ فإني لم أذهب لمقابلة الرجل الذي طلب مني أن أقابله، ومع ذلك فلولا ذهابي إلى هذا المكان ما كنت قابلت "**فريدا**" ولا سمعت استنجادها مستغيثة... لقد استحق السيد "**باين**" الخمسين جنيها ولو بطريق غير مباشر.

أما السيدة "**ولبراهام**" فقد كانت هي الأخرى تفكر: كنت في غاية السخف عندما صدقت هذا الإعلان ودفعت ثلاثة جنيهات للمدعو "**باين**"؛ فإنه لم يفعل أي شيء في مقابلها ولم يحدث أي شيء، ولو كنت أعرف ما سيحدث لما دفعتها ثمن مقابلتي لهذا الشخص "**ريد**"؟ ولولا الصدفة السعيدة لكنت عشت باقي حياتي دون أن أقابله. واستدارت نحو زوجها، وابتسمت له بكل حب وسعادة!

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل الثالث

السيد **بونتجتون**: يعمل لصالح المخبر "**باركر باين**"

روبرتس: الباحث عن حل لمشكلته

فاسيليفتش: عميل روسي

الفصل الثالث
قصة كاتب صغير

مال السيد "**باركر باين**" بكرسيه إلى الوراء وهو يتمعن في زائره.. كان رجلا قصير القامة، متين البنية، في نحو الخامسة والأربعين من عمره، تبدو في عينيه الحيرة والتردد والاستغراق في التفكير وهو يتطلع في أمل وشوق. وقال الزائر في انفعال:

– قرأت إعلانك في الصحف.

– هل تعاني مشكلة يا سيد "**روبرتس**"؟

– لا، ليس بهذا المعنى!

– هل أنت تعيس؟

– ولا حتى هذا، إني أحمد الله على حالي.

– كلنا نحمد الله لكن في أغلب الأحيان عندما نرى أنه يجب أن نذكر ذلك فمعنى هذا أن هناك مشكلة.

– هذا هو الموقف بالضبط.

– لماذا لا تروي لي كل شيء عن نفسك؟

– ليس لديَّ الكثير مما يروى؛ فلديَّ وظيفة، استطعت أن أدخر قليلا من المال. أولادي أصحاء وعلى ما يرام.

– إذن فما الأمر؟

– لا أدري، قد يبدو لك هذا نوعا من الغباء.

– أبدا. وبطريقته الذكية في توجيه الأسئلة استطاع السيد "**باركر باين**" أن يستخلص بعض المعلومات من السيد "**روبرتس**"؛ فتحدث إليه عن عمله في شركة معروفة، وعن زواجه، وعن كفاحه ليظهر دائما بمظهر محترم، ويعُلِّم أولاده، ويدخر بضعة جنيهات كل سنة... قصة حياة كلها كفاح من أجل البقاء.

– زوجتي غائبة الآن عن الدار عند أمها هي والطفلان... تغيير جو للأطفال وفرصة تمكن زوجتي من الاستجمام، والبيت هناك لا يتسع لي، وليس في مقدورنا أن نذهب إلى أي مكان آخر. ذات مرة، وأنا بمفردي أقرأ الصحيفة، رأيت إعلانك وبدأت أفكر... أنا الآن في الثامنة والأربعين... الدنيا تتغير من حولي وأنا كما أنا دون تغيير.

– تريد أن تعيش ولو لعشر دقائق؟

– ليس هذا تماما أو ربما نعم. أريد فقط أن أنطلق من هذا السجن، وحتما سأعود إليه راضيا فيما بعد مادام لديَّ شيء أفكر فيه. أعتقد أنه ليس هناك ما يمكن عمله، أليس كذلك يا سيدي؟ ثم إني أستطيع أن أدفع الكثير.

– كم تستطيع أن تدفع؟

– خمسة جنيهات، قد أستطيع أن أدفع هذا المبلغ.

– ربما استطعنا أن ندبر لك شيئا في مقابل الجنيهات الخمسة. هل تخشى الأخطار؟ وتوردت وجنتا السيد "**روبرتس**":

– الخطر؟ كلا البتة... في حياتي لم أفعل شيئا خطيرا. وابتسم السيد "**باين**":

– تعال لمقابلتي صباح غد وسأقول لك ما أستطيع أن أعمله.

دخل السيد "**باين**" مطعم "**البون فوايا جير**"، وهو مطعم صغير له زبائنه الخصوصيون، ولا يشجع الغرباء على ارتياده، وسأل عن السيد "**بونتجتون**".

– موجود يا سيدي في مكانه المعتاد. كانت تبدو على السيد "**بونتجتون**" مظاهر العسكرية، ونهض ليحيّي صديقه بحرارة:

– أهلا "**باركر**"، أنت مختفٍ منذ مدة.

– الحقيقة يا "**لوكاس**" أني كنت أفكر في حديثنا عندما كنا معا آخر مرة.

– حكاية "**بيتر فيلد**"؟ هل سمعت آخر الأنباء؟ لقد قتل مساء أمس.

– يا لله!

– هذا لا يدهشني البتة. رجل عنيد. هذا الـ "**بيتر فيلد**"، لم يصغ إلينا، وأصر على أن يحتفظ بالخطط معه.

– وهل قبضوا على القتلة؟

– لا، الظاهر أن إحدى النساء كانت قد أعطته وصفة لطهو لحم البقر المسلوق، وكعادته دائما في النسيان وضع الوصفة في الخزينة والخطط في المطبخ.

– هذا من حسن الحظ.

– بل رحمة من السماء لكنني لا أعرف مَن سيذهب بهذه الخطط إلى "**جنيف**".. "**ميشلان**" في المستشفى، و"**كارسليك**" في "**برلين**"، وأنا لا أستطيع السفر الآن، ربما "**هوفر**" الصغير.

– هل مازلت عند رأيك؟

– تماما، لا أثق به، إنني أستطيع أن أميز من فوري الإنسان النصاب، لكن لابد من إرسال هذه الخطط إلى "**جنيف**". لأول مرة لا نبيع اختراعا لدولة إنما نقدمه لها هدية. أجمل بادرة حدثت في السلم ولا أريد لها أن تفشل لكن "**هوفر**" نصاب.

– سألتني في المرة الأخيرة عما إذا كنت أعرف أحدا.

– نعم، فكرت في أنك تعرف شخصا مستعدا للمجازفة، أي شخص يتولى بعده المهمة قد يتعرض للخطر لكن من يأتي عن طريقك أنت لن يكون محل شبهة... على أن يكون ثابت الأعصاب.

– أظن أنني أعرف شخصا تتوافر فيه هذه الشروط.

– اتفقنا. ولخص السيد "**باركر باين**" تعليماته مرة أخرى:

– هل كل شيء واضح تماما؟ ستسافر بالدرجة الأولى في عربة نوم إلى "**جنيف**"... القطار يغادر "**لندن**" في الحادية عشر إلا ربعا عن طريق "**فولكستون**" و"**بولوني**"... في "**بولوني**" تذهب إلى عربة النوم، والمفروض أن تصل إلى "**جنيف**" في الثامنة من صباح اليوم التالي، هاك العنوان الذي ستذهب إليه، احفظه جيداً لأني سأمزق الورقة الآن، وبعد ذلك تذهب إلى الفندق المعين وتنتظر هناك تعليماتي، وإليك ما يكفيك من العملات الفرنسية والسويسرية، هل كل شيء مفهوم؟

– أجل يا سيدي، لكن هل تسمح لي بأن أعرف شيئا عما أحمله؟ وابتسم السيد "**باين**":

– أنت تحمل بيانا يوضح مكان إخفاء مجوهرات تاج قيصر "**روسيا**"، وأنت تدرك تماما أن الكثيرين يريدون أن يحصلوا على هذه الوثيقة، وإذا تحتم عليك أن تخبر أحداً بما تفعله فانصحك أن تقول إنك ربحت بعض النقود وتريد أن تمتع نفسك قليلا.

ارتشف السيد "**روبرتس**" قهوته وهو ينظر إلى بحيرة "**جنيف**"، كان سعيدا لكنه في الوقت نفسه كان يشعر بخيبة أمل، سعيد لأنها أول مرة في حياته يزور بلدا أجنبيا، ويقيم في فندق لم يحلم به، ولا يكترث أبداً للمبالغ التي ينفقها، حجرة فاخرة بحمام خاص، طعام شهي، خدمة ممتازة... كل هذا تمتع به إلى آخر قطرة.

لكن خيبة أمله مصدرها أنه لم يستهدفه أي خطر... لم يظهر أي عملاء يحاولون الحصول على الوثيقة، كان الاتصال الوحيد الذي تم بينه وبين إنسان آخر هو الحديث الذي جرى بينه وبين رجل أعمال فرنسي يجيد الإنجليزية كان معه في القطار نفسه... كان يخفي الوثيقة في المكان المحدد لها في الحقيبة التي أعطيت له، ثم قام بتسليمها حسب التعليمات تماما، لا خطر؛ لا مغامرات؛ لا شيء على الإطلاق! لهذا كان "**روبرتس**" يشعر بخيبة أمل. لكن في هذه اللحظة تماما جاء رجل طويل ملتحٍ وهمس:

– معذرة. وجلس إلى المائدة على المقعد المقابل له.

– أرجو معذرتك، لكن أظن أنك تعرف صديقا لي يرمز إلى اسمه بحرفي ب. ب.

وشعر السيد "**روبرتس**" بنشوة... أخيرا جاء العميل.

– هذا صحيح، أعرفه.

– إذن نستطيع أن نتفاهم. ونظر السيد "**روبرتس**" إلى الرجل متفحصا... كان يناهز الخمسين وتبدو عليه دلائل الثراء. كان يلبس مونوكل (نظارة أحادية الزجاجة) ذا شريط ملون مثبت في عروة سترته. قال الرجل الغريب:

– لقد أتممت مهمتك حتى الآن على أكمل وجه؛ فهل أنت على استعداد للقيام بالمهمة إذن؟

– قطعا على أتم استعداد.

– حسنا سوف تحجز لنفسك مكانا في عربة النوم على قطار "**جنيف**" – "**باريس**" مساء غد. وسوف تحجز الكبينة رقم 9.

– وإذا كانت محجوزة؟

– ستكون فارغة، سوف نرتب نحن ذلك.

– حسنا! الكبينة رقم 9 .

– في أثناء الرحلة سيتقدم إليك شخص ويسألك عما إذا كنت قد ذهبت إلى "**جراس**" منذ وقت قريب، ستجيب بأنك كنت هناك منذ شهر، فيسألك عما إذا كنت مهتما بالروائح العطرية، فتجيبه بأنك تعمل في صناعة عطر الياسمين، بعد هذا تضع نفسك تماما تحت تصرف هذا الشخص، وبهذه المناسبة هل تحمل سلاحا؟

– لا، لم أكن لأظن أنني سوف أحتاج إليه.

– سندبر ذلك فورا. ونظر الرجل حوله ليتحقق من أنه لا يوجد أحد بالقرب منهما ثم دس في يد السيد "**روبرتس**" شيئا صلبا لامعا.

– سلاح صغير لكنه فعال. ولم يكن السيد "**روبرتس**" قد لمس مسدسا في حياته، وبسرعة دس السلاح في جيبه وبدأ يراوده شعور بالخوف من أنه قد ينطلق في أية لحظة. وقال له الرجل:

– أتمنى لك حظا سعيدا، أرجو أن تقوم بهذه المهمة على أتم وجه. الحقيقة أنك رجل شجاع يا سيد "**روبرتس**".

وبعد أن رحل الرجل أخذ "**روبرتس**" يفكر في نفسه: هل أنا شجاع حقًّا؟ ربما لكنني قطعا لا أريد أن أُقتل أو أن يصيبني شيء. وعاوده الشعور بالنشوة، لكنها كانت في هذه المرة مقترنة بالخوف.

وعاد السيد "**روبرتس**" إلى غرفته وأخذ يفحص المسدس، لم يكن واثقًا تماما بطريقة استعماله.. وحجز "**روبرتس**" لنفسه مقعدا بالقطار، وذهب إلى المحطة في موعده تماما وسلم حقيبته إلى الشيال الذي اصطحبه إلى كبينته. كانت هناك أمتعة أخرى في الكبينة... حقيبة من جلد الخنزير وأخرى من الجلد السميك وكان رقم 9 هو السرير السفلي. وعندما استدار السيد "**روبرتس**" ليغادر الكبينة كاد يصطدم برجل ضخم، وتبادلا الاعتذار تكلم "**روبرتس**" بالإنجليزية وتحدث الآخر بالفرنسية! كان الرجل ضخما لدرجة لافتة للنظر، حليق الرأس وعلى عينيه نظارة سميكة، وكانت نظراته تدل على التشكك الشديد. وقال "**روبرتس**" لنفسه: إنسان ثقيل الظل.

كان يشعر بداخله شعورا بالتوجس من هذا الرجل. هل طلبوا منه أن يحجز في رقم 9 لكي يراقب هذا الرجل؟ ربما.. وخرج إلى الممر. لم تبقَ سوى عشر دقائق على موعد قيام القطار وفكر في أن يتمشى قليلا على الرصيف، وفي الممر التقى بامرأة تتبع شيالا إلى كبينتها، وعندما مرت بجانبه سقطت منها حقيبة يدها وانحنى "**روبرتس**" ليعيدها إليها.

– أشكرك يا سيدي. كانت تتكلم الإنجليزية لكن بلكنة أجنبية، وكان صوتها رخيما وجذابا. وعندما بدأت تعاود سيرها توقفت قليلا وسألته:

– معذرة يا سيدي، لكن أظن أنك كنت في "**جراس**" منذ وقت قريب.

ورقص قلب "**روبرتس**"! إذن فعليه أن يضع نفسه تحت تصرف هذه المخلوقة الجذابة. كانت جميلة فعلا... ليست جميلة فقط لكن أرستقراطية المظهر، وتبدو ثرية قطعا، كانت ترتدي معطفا من الفراء وقبعة أنيقة وتتزين بعقد من اللؤلؤ، وكانت بشرتها سمراء وشفتاها قرمزيتين. ورد "**روبرتس**" بالإجابة المطلوبة:

– نعم، منذ شهر.

– هل تهتم بالروائح العطرية؟

– نعم فإني أعمل في صناعة عطر الياسمين. وأحنت له رأسها واستمرت في سيرها بعد أن همست:

– سأقابلك في الممر حالما يتحرك القطار. ومرت الدقائق العشر الباقية وكأنها الدهر ثم

تحرك القطار. ومشى "**روبرتس**" على مهل في الممر ووجد السيدة ذات الفراء تحاول جاهدة أن تفتح النافذة فأسرع يساعدها.

– أشكرك يا سيدي. قليل من الهواء قبل أن يوصدوا جميع النوافذ. ثم أضافت بسرعة بما يكاد يشبه الهمس:

– بعد أن نمر من الحدود ويكون زميلك الذي في الكبينة قد نام اذهب إلى دورة المياه واعبر منها إلى الكبينة الملاصقة من الناحية الأخرى، هل فهمتني؟

– نعم. وأتم فتح النافذة ثم قال بصوت مرتفع:

– أية خدمة أخرى يا سيدتي؟

– لا، أشكرك جداً. وعاد إلى كبينة. كان رفيقه قد استلقى على الفراش العلوي مرتديا ملابسه كاملة فيماعدا معطفه وحذاءه الغليظ.

وخلع "**روبرتس**" حذاءه أيضا، واستلقى بملابسه هو الآخر على الفراش السفلي بعد أن أطفأ النور، وبعد دقائق كان شخير الرجل الأخر على الفراش العلوي قد بدأ يرتفع!

ووصل القطار إلى الحدود بعد العاشرة بقليل، وفتح الباب ودخل مفتش الجمرك وسأل أسئلته المعتادة. ثم عاود القطار سيره وعاود الرجل الآخر شخيره. ومكث "**روبرتس**" بضع دقائق أخرى ليتأكد أن الرجل الآخر مستغرق في النوم تماما ثم انسل من الفراش، ودخل دورة المياه، وأوصد الباب جيدا وراءه، ونظر إلى الباب المقابل الذي يؤدى إلى الكبينة الأخرى، وتساءل: هل يقرعه قبل الدخول؟ لكنه آثر ألا يفعل ذلك مادامت السيدة تنتظره، وفتح الباب بهدوء وانتظر قليلا ثم سعل!

وبسرعة انفتح الباب وأمسكت يد بذراع "**روبرتس**" وجذبته إلى الداخل وأغلقت الباب وراءه وأوصدته جيدا. لم يكن "**روبرتس**" ليتخيل أنه يمكن أن تكون هناك امرأة جميلة إلى هذا الحد! كانت ترتدي روباً من الشيفون والدانتيلا، وكان صدرها يعلو ويهبط بانفعال وهي متكئة على الباب، وغمغمت قائلة:

– الحمد لله.

كانت أصغر سنا مما بدت في أول الأمر، وتخيل "**روبرتس**" أنها مخلوقة هبطت من عالم آخر! لم يكن قد رأى امرأة على هذا القدر من الجمال والجاذبية، أخيرا... جداً... مغامرة غرامية وهو غارق فيها إلى أذنيه. تكلمت المرأة أخيرا، بسرعة وبصوت خفيض،

كانت تتكلم الإنجليزية بطلاقة، لكن بلكنة أجنبية شديدة:

– كم أنا سعيدة لحضورك! كنت خائفة جدًّا. "**فاسيليفتش**" موجود في القطار نفسه وأنت تعلم ما يعني هذا. وطبعا لم يكن "**روبرتس**" ليفهم أي شيء لكنه هز رأسه، فتابعت قائلة:

– كنت أظن أنني استطعت أن أهرب منهم؛ فما العمل الآن؟ "**فاسيليفتش**" موجود في الكبينة المجاورة، ومهما يكن الأمر فلا يجب أن نمكنه من الحصول على المجوهرات حتى لو قتلني. لا يجب أن يضع يديه على المجوهرات.

– لن يستطيع أن يقتلك ولن يستطيع الحصول على المجوهرات. كان صوت "**روبرتس**" قاطعا وهو يقول لها ذلك.

– إذن فماذا أفعل بها؟ ونظر "**روبرتس**" إلى الباب:

– هل الباب مغلق جيداً؟ وضحكت الفتاة:

– وماذا يهم "**فاسيليفتش**".. مجرد باب مغلق؟ وشعر "**روبرتس**" بأنه يعيش قصة بوليسية بحذافيرها:

– هناك شيء واحد يجب عمله. أعطيني المجوهرات.

– إن ثمنها ربع مليون جنيه. وكان في صوتها شيء من الارتياب.

– يمكنك أن تثقي بي. وترددت الفتاة برهة ثم قالت:

– حسنا! سوف أثق بك. وبحركة سريعة أخرجت جوربا من النايلون ملفوفا بعناية قدمته إلى "**روبرتس**":

– خذها إذن يا صديقي. وتناولها "**روبرتس**" وكان الجورب ثقيلا بمحتوياته.

– خذها إلى كبينتك، ويمكنك أن تعيدها إليَّ في الصباح، هذا إذا كنت على قيد الحياة. فقال "**روبرتس**" بسرعة:

– أنصتي جيدا.. بخصوصك أنت... يجب أن أتولى حراستك. واحمر وجهه خجلا وهو يضيف:

– ليس هنا في كبينتك طبعا، سوف أمكث هناك. وأومأ برأسه ناحية دورة المياه. فقالت الفتاة وهي تشير إلى السرير العلوي الفارغ في كبينتها:

– إذا كنت تحب أن تمكث هنا...

– لا... لا.. أجابها "**روبرتس**" على عجل:

– سوف أكون على ما يرام هناك، وإذا احتجت إلى أي شيء فسأكون قريبا منك.

فقالت له الفتاة برقة:

– أشكرك جدًّا يا صديقي. واستلقت على فراشها، وجذبت فوقها الغطاء، وهي تبتسم له بامتنان، وتراجع هو إلى دورة المياه.

❖❖❖❖❖

وعلى حين غرة – وبعد مضي ساعتين تقريبا – شعر "**روبرتس**" بأنه سمع حركة ما، ربما كان مخطئا لكنه لم يستطع أن يتجاهل شعوره. ففتح الباب برفق. كانت الكبينة كما تركها بنورها الأزرق الباهت الذي لا يكاد يبدد الظلام، وأجهد عينيه وهو يتفحص أركان الكبينة في الضوء الخافت وسقطت عيناه على الفراش . فوجده خاليا تماما، وبسرعة أضاء النور. كانت الكبينة خالية. واستطاع "**روبرتس**" أن يشم رائحة الكلوروفورم تعبق بالمكان. وخرج من الكبينة إلى الممر، كان هو الآخر خاليا ونظر إلى باب الكبينة المجاورة التي قالت الفتاة إن "**فاسيليفتش**" موجود بها. وبهدوء أدار المقبض، لكن الباب كان موصدا، وحار "**روبرتس**" ماذا يفعل إذا طرق الباب فإن الرجل قد لا يسمح له بالدخول ثم قد لا تكون الفتاة هناك، وإن كانت هناك فإن تدخله بهذا الشكل العلني قد يربك الأمور خاصة وأن الأمر، كما فهم، يتطلب السرية التامة.

وسار جيئة وذهابا في الممر وهو لا يدري ماذا يفعل، وتوقف قليلا عند آخر كبينة عندما وجد بابها مفتوحا، وكان كمساري القطار نائما فيها، وعلى المشجب كان يتدلى المعطف البني وغطاء الرأس (الكاب) الذي يرتديه موظفو القطار عادة.

وبسرعة قرر "**روبرتس**" ما ينبغي له أن يفعل، في لحظة خاطفة كان قد ارتدى المعطف ووضع (الكاب) فوق رأسه وعاد مسرعا في الممر حتى باب كبينة "**فاسيليفتش**"، واستجمع كل شجاعته، ونقر على الباب برفق، ولما لم يرد عليه أحد نقر على الباب مرة أخرى بقوة، وفتح الباب فتحة صغيرة وأطل منها رجل حليق الرأس ذو شارب أسود كثيف وصاح به في غضب:

– ماذا تريد؟

– جواز السفر لو سمحت يا سيدي. وتردد الرجل قليلا، ثم خرج إلى الممر، وأدرك "**روبرتس**" فورا أن الفتاة موجودة قطعا في الداخل، وإلا لما حرص الرجل على أن يحول بينه وبين الدخول. وتحرك "**روبرتس**" بسرعة ودفع الرجل بكل قوة جانبا ودخل مسرعا الكبينة وأوصد الباب خلفه، وساعده على ذلك أن الرجل لم يكن مستعدا لهذه الحركة، ثم إن اهتزاز القطار في أثناء سيره بسرعة جعل الرجل يفقد توازنه تماما.

وهناك على الفراش كانت الفتاة راقدة... وفمها مكمما ويداها موثقتين. وبسرعة حل وثاقها وألقت هي بنفسها بين ذراعيه وهي تتنهد:

– أشعر بضعف شديد من تأثير الكلوروفورم. هل... هل حصل عليها؟ وربت "**روبرتس**" جيبه وهو يجيب:

– لا، لكن ماذا سنفعل الآن؟ وكانت الفتاة قد استعادت وعيها تماما، لاحظت الزي الذي يرتديه:

– كم أنت سريع البديهة! إنها لفكرة رائعة. لقد هددني بالقتل إذا لم أرشده إلى مكان المجوهرات. كنت سأموت من الرعب حتى وصلت أنت. ثم ضحكت وأضافت:

– لقد هزمته بذكائك، لن يستطيع الآن عمل أي شيء، لن يستطيع حتى الرجوع إلى كبينته. كل ما علينا أن نفعله هو أن ننتظر هنا حتى الصباح، قطعا سيغادر هو القطار في "**ديجون**" عندما نتوقف هناك بعد نصف ساعة، سيبرق إلى "**باريس**" وسيلتقطنا أتباعه هناك. يستحسن أن تلقي الزي من النافذة قبل أن يكتشف أحد أنك سرقته. فقال "**روبرتس**":

– حسنا! سأفعل ما تريدين. وأضافت الفتاة:

– لكن لا يجب أن ننام، ينبغي أن نبقى حريصين ومتنبهين حتى الصباح. وأمضيا الليل ساهرين، وفي السادسة صباحا فتح "**روبرتس**" الباب بحرص وأطل منه، لم يكن هناك أحد، ودلفت الفتاة مسرعة إلى الممر ثم إلى كبينتها يتبعها "**روبرتس**". كان من الواضح أن شخصا ما قد عبث بكل محتوياتها. وعاد "**روبرتس**" إلى كبينته ووجد زميله فيها مازال يصدر شخيرا عاليا.

ووصلا إلى "**باريس**" في السابعة، وكان الكمساري يثير ضجة على الرصيف لاختفاء الزي الرسمي الخاص به، ولم يكن قد اكتشف بعد أن أحد الركاب أيضا قد اختفى ثم

بدأت مطاردة مثيرة ومسلية في الوقت نفسه، واستقلا سيارة أجرة بعد أخرى وذهبا من طرف المدينة إلى الطرف الآخر، ودخلا عدة فنادق ومطاعم من أبوابها الأمامية وغادراها من أبوابها الخلفية حتى تنهدت الفتاة آخر الأمر.

– أنا متأكدة تماما أنهم فقدوا أثرنا الآن. وبعد أن تناولا الإفطار ذهبا إلى مطار "**ليبورجيه**" واستقلا الطائرة إلى "**كرويدون**"، وكانت هذه أول مرة يركب فيها "**روبرتس**" طائرة في حياته. وفي "**كرويدون**" قابلهما رجل طويل يشبه إلى حد ما الرجل الذي قابله "**روبرتس**" في "**جنيف**". وحيا الرجل الفتاة باحترام شديد وقال:

– إن السيارة تنتظرنا يا سيدتي.

سيرافقنا هذا السيد يا "**بول**". ثم استدارت نحو "**روبرتس**" وقدمت إليه الرجل:

– الكونت "**بول ستيباني**"، كانت السيارة "**ليموزين**" فاخرة، سارت بهما نحو ساعة ثم وصلت إلى قصر ريفي ينم مظهره عن الثراء، ودخل "**روبرتس**" معهما إلى غرفة مكتب أنيقة حيث سلمهما الجورب المحتوي على المجوهرات ثم تركاه بمفرده لحظة عاد بعدها الكونت "**ستيباني**"، وقال:

– سيد "**روبرتس**"... أنت تستحق منا كل شكر وتقدير. لقد أثبت أنك رجل شجاع وكريم. اسمح لي بأن أمنحك وسام "**سان ستانيسلا**" مع مرتبة الشرف. وقدم له الرجل علبة من القطيفة الحمراء وفتحها "**روبرتس**" وهو في شبه حلم، وحدق إلى الميدالية المحلاة بالجواهر. وعاد "**الكونت**" يقول:

– تريد سيدتي الدوقة العظيمة "**أولجا**" أن تشكرك بنفسها قبل رحيلك. واقتاده إلى غرفة استقبال كبيرة وهناك وقفت رفيقته في القطار ترتدي فستانا طويلا غاية في الأناقة، وأشارت "**الدوقة**" بيدها فخرج "**الكونت**" وتركهما بمفردهما.

– سيد "**روبرتس**"، أنا مدينة لك بحياتي. ومدت له يدها، وانحنى "**روبرتس**" عليها وقبَّلها، واقتربت منه "**الدوقة**" فجأة وهي تقول:

– إنك رجل شجاع. والتقت شفتاهما وداعبت أنفه رائحة عطرها الشرقي، وأبقى "**روبرتس**" ذراعيه حولها لحظة! وكان لايزال في حلمه عندما اقترب منه شخص وقال له:

– السيارة تنتظرك يا سيدي لتصحبك إلى أي مكان. وعادت السيارة بعد ساعة

واستقلتها "**الدوقة**" و"**الكونت**". وكان "**الكونت**" قد خلع لحيته المستعارة. وغادرت الدوقة "**أولجا**" السيارة أمام منزل في ضاحية "**ستريتهام**" ودخلت المنزل حيث وجدت سيدة عجوزا تصب الشاي.

– آه يا عزيزتي "**ماجي**"! ها قد عدت أخيرا. في قطار "**جنيف**" كانت الفتاة.. الدوقة "**أولجا**"، وفي مكتب السيد "**باركر باين**" كانت "**مادلين دي سارا**"، وفي المنزل في "**ستريتهام**" كانت "**ماجي سايرز**" الابنة الرابعة في عائلة محافظة. كان السيد "**باركر باين**" يتناول الغداء مع صديقه.

– تهنئتي، لقد قام رجلك بالمهمة خير قيام. لابد من أن الآخرين قد فقدوا الرشد عندما أدركوا أنهم لم يستطيعوا الحصول على الوثيقة. هل أخبرته بمحتويات الوثيقة؟

– لا. لفقت له قصة أخرى.

– هذا افضل بكثير.

– ليس هذا فقط؛ فقد كنت أريد أن أجعل هذا الرجل يشعر بالإثارة إلى أقصى حد، كنت أريده أن يحظى بقسط من المغامرة.

– هل تكسب كثيرا من مهنتك هذه يا "**باين**"؟

– أحيانا أخسر... هذا إن كانت القضية تستحق.

❖❖❖❖❖

وفي "**باريس**" كان هناك ثلاثة أشخاص يتبادلون الشتائم.

– اللعنة على "**هوير**". لقد تخلى عنا. لم تكن الوثيقة مع أي شخص من المكتب لكنها خرجت من المكتب يوم الأربعاء، أنا واثق تماما بذلك. كل ما حدث هو سوء تصريفك للأمور. وقال الثالث بغضب:

– لا، ليست غلطتي.

لم يكن هناك أي إنجليزي على القطار سوى كاتب صغير لايمكن أن يكون قد عرف شيئا في حياته عن "**بيتر فيلد**" أو الوثيقة.

❖❖❖❖❖

كان السيد "**روبرتس**" يجلس إلى جوار المدفأة.. وعلى ركبته خطاب من السيد "**باركر باين**". كان يحتوي على شيك بمبلغ خمسين جنيها من أناس يقدرون تماما ما قام به من أجلهم. وتنهد السيد "**روبرتس**". لم يكن حلما، كل هذا حدث فعلا، كانت مغامرة ممتعة للغاية، لكنه الآن سعيد بالعودة إلى المنزل، غدا تعود "**ماري**" والأولاد.

وابتسم "**روبرتس**" في سعادة.

سوف تقول "**ماري**" إنها قضت عطلة جميلة لولا أنها كانت تفكر فيه وهو يعيش وحيدا. وسوف يقول لها إنه اضطر إلى الذهاب إلى "**جنيف**" لقضاء بعض أعمال للشركة، وإنه أجرى مفاوضات كوفئ على إنجازها، وسيريها الشيك! ثم تذكر الوسام، كان قد خبأه.. لكن ربما عثرت عليه "**ماري**"؛ فماذا يقول لها؟ واستقر رأيه على أن يقول إنه اشتراه كتذكار في رحلته. والتقط كتابا وشرع يقرأ وهو يشعر بسعادة لم يشعر بمثلها في حياته من قبل.

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل الرابع

الآنسة **ليمون**: سكرتيرة المخبر

السيدة **دافني سان جون**

كلود لوتريل: مساعد المخبر

ليدي "**دورتيمر**"

الفصل الرابع
قضية المرأة التعيسة

دق الجرس الخافت على المكتب وسمع السيد "**باركر باين**" صوت سكرتيرته تقول:

– هناك فتاة ترغب في مقابلتك ولكن لم يسبق لها تحديد موعد معك.

– لا يهم. أدخليها من فضلك يا آنسة "**ليمون**". ودخلت الفتاة، وصافحها السيد "**باين**" ودعاها إلى الجلوس. كانت جميلة، صغيرة السن وشعرها أسود ومموج، تبدو جذابة في معطفها الأبيض وجوربها الملون وحذائها الأنيق لكنها كانت تحت تأثير توتر

عصبي شديد .

– هل أنت السيد "**باركر باين**" ؟

– نعم .

– صاحب الإعلان؟

– صاحب الإعلان .

– تقول إن الناس عندما يكونون تعساء يمكنهم الحضور إليك؟

– نعم .

– حسنا! أنا تعيسة جدًّا؛ ولهذا جئت إليك لأرى ما تستطيع عمله . ولم يتكلم السيد "**باين**" وانتظر أن تكمل الفتاة حديثها، وأضافت الفتاة بعد لحظة وهي تضغط يديها بشدة :

– أنا في ضائقة شديدة .

– هذا يبدو واضحا . هل تريدين أن تسردي لي ما يضايقك؟ كانت الفتاة مترددة، وأخذت تنظر إلى السيد "**باين**" بإمعان وتفحص ثم اندفعت في الكلام :

– أجل، سوف أحكي لك . . لقد قررت أن أقول لك كل شيء . إن قلقي سوف يدفعني إلى الجنون، إنني لا أعرف أين أذهب أو مع من أتكلم، حتى قرأت إعلانك . في أول الأمر ظننته دعابة ثم فكرت . . إنني لن أخسر شيئا بالمجيء إليك، يمكنني أن أنصرف بمجرد أن أحس أنني لا أثق بك .

– والآن هل تشعرين بأنني يمكن أن أكون محل ثقتك؟

– قد يبدو لك هذا غريبا لكنني شعرت لأول وهلة بأنني أثق بك حتى قبل أن أعرف أي شيء عنك، أنا متأكدة أنه يمكنني أن أثق بك .

– وأنا أستطيع أن أؤكد لك أن ثقتك في محلها .

– حسنا! سوف أقص عليك كل شيء . . . اسمي "**دافني سان جون**" .

– آنسة؟

– سيدة متزوجة . وأحس السيد "**باين**" بالحرج لأنه لم يلحظ دبلة الزواج في إصبعها . استطردت :

– لو لم أكن متزوجة لهان الأمر، إنه تفكيري في "**جيرالد**" زوجي، هنا أصل المشكلة. وأدخلت يدها في حقيبتها وأخرجت شيئًا وألقت به على المكتب أمام السيد "**باين**"، كان خاتما من البلاتين مُحلًّى بماسة ثمينة. وتفحص السيد "**باين**" الخاتم بإمعان وقال:

– إنها ماسة فاخرة، تساوي على الأقل ألف جنيه.

– أجل، وهي مسروقة، أنا سرقتها، ولا أدري ماذا أفعل. وانهارت الفتاة تبكي وتنشج.

– لا عليك. كل شيء سيسير على ما يرام. وجففت الفتاة دموعها:

– هل أنتَ متأكد أن كل شيء سيكون على ما يرام؟

– طبعا، الآن احكي لي قصتك من البداية.

– البداية كانت ضائقة مالية. أنا بطبيعتي مسرفة جدًّا، وهذا يضايق "**جيرالد**" كثيرا، إنه يكبرني بعدة سنوات وله أفكار محدودة. يكره جداً الديون. ولذا لم أستأذنه عندما ذهبت مع بعض الأصدقاء إلى محل الـ"**توكيت**" وكنت متأكدة أن حظي سيسعفني في لعبة "**ايشمان دي فير**". وفعلا كسبت في أول الأمر، ثم بدأت أخسر. فقررت أن أستمر وتوالت الخسارة... لم أستطع أن أقول لـ "**جيرالد**" فهو يكره القمار، وكنت يومها في حالة شنيعة. وقد ذهبت إلى "**كوبهام**" عند آل "**دورتيمر**"، إنهم أغنياء جداً كما تعلم، زوجته "**ناعومي**" كانت زميلتي في المدرسة، صديقة عزيزة لي. وفي أثناء وجودي عندها انفصل الفص الماس عن خاتمها فطلبت مني عند عودتي إلى "**لندن**" أن آخذه إلى الجوهري في "**بوند ستريت**".

– ها قد وصلنا إلى المشكلة، استمري يا سيدتي.

– أرجوك ألا تتفوه بكلمة عن هذا لأي مخلوق.

– إن أسرار عملائي مقدسة تماما، وعلى كل حال فإن باستطاعتي الآن أن أكمل القصة بدلا منك.

– أعرف هذا، أنا أكره نفسي لما حدث، ذهبت إلى "**بوند ستريت**"، هناك جوهري آخر يدعى "**فيرو**"، ماهر في تقليد المجوهرات. كنت أتصرف دون شعور. طلبت منه نسخة طبق الأصل من الخاتم، قلت إنني مسافرة إلى الخارج ولا أريد أن آخذ معي مجوهراتي الحقيقية. وبدا له هذا أمرا طبيعيا. كانت النسخة المزيفة مطابقة إلى حد

مدهش؛ فأرسلتها بالبريد إلى الليدي "**دورتيمر**"، كان عندي صندوق صغير عليه اسم الجوهري فلم ترتب في شيء، ثم رهنت الخاتم الحقيقي... ثم أخفت وجهها بين راحتيها وأخذت تبكي ثانية:

– بالله كيف استطعت أن أفعل هذا؟ كيف استطعت؟ وسعل السيد "**باين**" منبها:

– أظن أن القصة لم تنته بعد.

– لا، لم تنته. حدث هذا منذ ستة أسابيع، سددت كل ديوني، ومع ذلك كنت في منتهى التعاسة، ثم توفيت ابنة عم عجوز لي وتركت لي مبلغا من المال، وأول شيء فكرت فيه هو أن أسترد الخاتم الملعون ثم حدث شيء زاد الأمور تعقيدا.

– وما هو؟

– لقد دب الخلاف بيننا وبين آل "**دورتيمر**"، خلاف حول أسهم كان "**دورتيمر**" قد أقنع "**جيرالد**" بشرائها، وغضب "**جيرالد**" جداً وقال لـ"**دورتيمر**" رأيه بكل صراحة، المشكلة الآن أنني لا أستطيع أن أعيد الخاتم.

– ألا يمكنك أن ترسليه إليها بخطاب مجهول؟

– هذا سيفضح كل شيء؛ وسوف تكتشف الخاتم المزيف وتدرك فورا ما فعلته.

– لقد قلت لي إنها صديقتك. لماذا لا تقولين لها الحقيقة وتدعين نفسك تحت رحمتها؟ هزت السيدة "**سان جون**" رأسها:

– إن صداقتنا لا تصل إلى هذا الحد، وفيما يختص بالمال أو المجوهرات فإن "**ناعومي**" لاتتهاون أبداً، قد تشكوني في المحاكم لو عرفت أمر الخاتم، سوف تخبر الدنيا كلها بما فعلته، وسيعرف زوجي "**جيرالد**" ولن يغفر لي أبداً. إنه لموقف مروع! وبدأت تبكي مرة أخرى:

– لقد فكرت وفكرت ولم أجد حلا واحدا للمشكلة. هل تستطيع أن تفعل أي شيء من أجلي يا سيد "**باين**"؟

– أشياء كثيرة.

– أصحيح هذا؟ في استطاعتك؟

– بالتأكيد. لقد اقترحت عليك أهون الطرق لكنني مقدر تماما اعتراضاتك، والآن هل يعرف أحد أي شيء عن الموضوع سواك؟

– أنت فقط.

– أنا لا أدخل في الحسبان؛ إذن فسرك في أمان الآن. كل ما نحتاج إليه هو أن نبدل الخاتم دون أن نثير شبهة أحد. هذا ليس بالعسير، فقط يجب أن نفكر في أفضل الطرق.

فقاطعته قائلة:

– لكن ليس هناك وقت كافٍ، وهذا هو ما يدفعني إلى الجنون؛ فهي تنوي أن تعيد صياغة الخاتم.

– وكيف عرفت ذلك؟

– بالصدفة؛ فقد كنت أتناول الغداء مع إحدى الصديقات منذ أيام وأبديت إعجابي بخاتمها؛ لأنه يضم زمردة كبيرة وجميلة فأخبرتني صديقتي بأن " **ناعومي دورتيمر** " تنوي إعادة صياغة خاتمها على الطراز نفسه.

– هذا معناه أن علينا أن نتصرف بسرعة.

– نعم نعم.

– وهذا يعني أن علينا أن ندخل المنزل.. بطريق مشروع إن أمكن. هل لديك اقتراحات يا سيدتي؟

– تنوي "**ناعومي**" إقامة حفلة ساهرة كبرى يوم الأربعاء، وقد ذكرت لي صديقتي أنها تبحث عن راقصات لتقديم بعض الاستعراضات، لا أظن أنها وجدت ضالتها بعد...

– يمكننا أن نعالج هذا الأمر. إذا كانت قد اتفقت فعلا فذلك سيكلفنا أكثر، هذا كل ما في الأمر، والآن هل تعرفين مكان محول الكهرباء الرئيسي في المنزل؟

– نعم، أعرفه؛ ففي إحدى الليالي انطفأ النور الكهربائي بعد أن غادر المنزل جميع الخدم وعالجنا الأمر بأنفسنا، إنه في صندوق خلف الصالة الكبرى. وطلب منها السيد "**باين**" أن ترسم له خريطة مبسطة ليحدد مكان المحول الكهربائي. ثم قال:

– والآن كل شيء سيسير على ما يرام. أرجوك ألا تقلقي، أما بخصوص الخاتم. فهل ترغبين في إعطائي الخاتم الآن أم تفضلين أن يبقى معك حتى يوم الأربعاء؟

– ربما يستحسن أن أحتفظ به أنا.

– حسنا! فقط أرجوك ألا تقلقي. وسألته الفتاة في حياء:

– وماذا بخصوص أجرك؟

– يمكن إرجاء هذا في الوقت الحاضر، سأخبرك يوم الأربعاء بالمصاريف، أما الأجر فهو صوري فقط. واصطحبها إلى الباب ثم دق جرس سكرتيرته:

– من فضلك أرسلي لي "**كلود**" و"**مادلين**". كان "**كلود لوتريل**" من أجمل فتيان "**إنجلترا**" كما كانت "**مادلين دي سارا**" من أحلى فاتناتها.

– حسنا يا أولادي عندي مهمة لكما.. سوف تصبحان من أشهر الراقصين العالميين لفترة ما، والآن أصغِ إليَّ يا "**كلود**" وافهمني جيدا...

❖❖❖❖❖

كانت الليدي "**دورتيمر**" سعيدة جدًّا بترتيبات حفلها الساهر، أخذت تتفحص ترتيب الورد والزينات، وتلقي بآخر تعليماتها للخدم وهي مغتبطة لأن كل شيء يسير حسب رغباتها تماما.

كانت قد تضايقت بعض الشيء عندما أخبروها تليفونيا بأن الراقصين "**مايكل**" و"**جوانيتا**" المشهورين لن يستطيعا تقديم عرضهما عندها لأن "**جوانيتا**" أصيبت بالتواء في قدمها، لكنهم أكدوا لها أن الراقصين البديلين من أحسن الراقصين وأن استعراضهما كان من أنجح الاستعراضات التي شهدتها "**باريس**".

وما إن وصل الراقصان وشاهدتهما الليدي "**دورتيمر**" حتى تبددت كل الشكوك التي ساورتها. ومضت السهرة دون أن يكدرها شيء. كانت الاستعراضات جميلة، وبعدها بدأ الرقص وطلب الراقص الجميل من الليدي "**دورتيمر**" أن تراقصه، وكان ماهرا جدًّا إلى درجة اعتقدت معها أنها لم تراقص في حياتها خيرا من هذا.

أما زوجها فكان يبحث، دون جدوى، عن الراقصة الحسناء التي كانت قد اختبأت خلف الصالة الكبرى بجانب صندوق المحول الكهربائي وهي تنظر إلى ساعة معصمها بقلق. وكان "**كلود**" أو الراقص "**جول**"، يضغط برفق على خصر الليدي "**دورتيمر**" ويهمس:

– لا يمكن أن تكوني إنجليزية، لا يمكن خاصة وأنت ترقصين هكذا. وضغطها إليه أكثر، وفجأة انقطع النور الكهربائي. وفي الظلام انحنى "**كلود**" ليقبل يد الليدي

"**دورتيمر**" الموضوعة على كتفه، فلما همت بسحبها أمسكها بيده ودفعها إلى شفتيه. وفي أثناء جذب يدها انزلق الخاتم من إصبعها في يده. وعاد النور، وبدا لليدي "**دورتيمر**" أن الأمر استغرق مجرد لحظة، وكان "**كلود**" يبتسم:

– خاتمك انزلق من إصبعك؛ فهل تسمحين لي؟ برقت عيناها وهو يعيد الخاتم إلى إصبعها، وعيناه مثبتتان على عينيها. وغمغم زوجها:

– أحد التافهين يريد أن يبدو ظريفا. أما الليدي "**دورتيمر**" فكانت في نشوة.

وصل السيد "**باركر باين**" إلى مكتبه صباح الخميس ليجد السيدة "**سان جون**" في انتظاره، وسألته بشوق:

– ماذا تم؟ وأجابها السيد "**باين**":

– تبدين شاحبة متعبة.

– لم أستطع النوم لحظة، كنت على أحر من الجمر..

– ها هي فاتورة الحساب... تذاكر القطار، وخمسون جنيها لـ"**مايكل**" و"**جوانيتا**"، المجموع خمسة وستون جنيها وسبعة عشر شلنا. ونظر إليها السيد "**باين**" بدهشة:

– يا سيدتي العزيزة، طبعا كل شيء تم على أحسن وجه، كنت أظن أنك تفهمين ذلك تماما.

– يا لحسن الحظ! كنت أخشى أن...

– لا يوجد مكان للفشل عندي، إذا كنت أشك في النجاح فأنا لا أقبل القضية منذ البداية، وقبولي لقضية معناه أن نجاحها أكيد.

– هل استعادت فعلا خاتمها دون أن تشك في شيء؟

– ليس لديها أدنى شك؛ فقد تمت العملية بكل بساطة. وتنهدت "**دافني سان جون**":

– لقد انزاح حمل ثقيل عن قلبي، وكم بلغت المصروفات؟

– خمسة وستون جنيها وسبعة عشر شلنا. وأخرجت السيدة "**سان جون**" النقود وأعطتها له وسلمها السيد "**باين**" إيصالا بها.

– وماذا عن أجرك أنت؟ هذا المبلغ يغطي المصروفات فقط.

– في هذه القضية بالذات لن أتقاضى أي أجر.

– مستحيل يا سيد "**باين**"، لا يمكن أبداً.

– لا فائدة يا سيدتي العزيزة، لا أستطيع أن أتقاضى أي أجر، إنه ضد مبادئي. ها هو إيصالك والآن... وابتسم بخبث وهو يخرج علبة صغيرة من جيبه ويدفعها فوق المكتب ناحيتها، وفتحت "**دافني**" العلبة ووجدت النسخة المشابهة للخاتم بداخلها. ونظرت "دافني" إلى الخاتم وهي تقطب وجهها بدلال:

– أيها الوغد، إنني أمقتك! أتمنى أن ألقي بك من النافذة.

– يحسن بك ألا تفعلي، وإلا اندهش المارة. وسألته "**دافني**":

– هل أنت متأكد أنه ليس الخاتم الحقيقي؟

– طبعا الخاتم الذي أعطيته إياي موجود الآن في إصبع الليدي "**دورتيمر**". فضحكت في سعادة:

– إذن فكل شيء على ما يرام. وعاد السيد "**باركر باين**" يقول:

– لكن الغريب أنك سألتني هذا السؤال. إن "**كلود**" المسكين يفتقر تماما إلى الذكاء ومن الجائز أن يكون قد ارتبك والتبس عليه الأمر، لذلك عرضت الخاتم على أحد الخبراء هذا الصباح. وانتبهت السيدة "**سان جون**" في جلستها وبان عليها الغضب:

– حقًّا؟ وماذا قال؟

– قال إن الخاتم تقليد مدهش. تزييف من الدرجة الأولى. وهذا طبعا يهدئ من خاطرك. وبدا على السيدة "**سان جون**" أنها ستقول شيئا لكنها عدلت وجلست تحدق إلى السيد "**باركر باين**". وقال لها السيد "**باركر باين**" بهدوء:

– هذا الدور – دور مخلب القط – لا أعتقد أنني أريد لأي من الذين يعملون معي أن يقوموا به. هل أقص عليك قصة صغيرة؟ حسنا.

القصة تتعلق بفتاة صغيرة وجميلة. ليست متزوجة اسمها ليس "**سان جون**" وليس "**دافني**" أيضا، اسمها الحقيقي "**أرنستين ريتشاردز**"، وإلى وقت قريب كانت تعمل سكرتيرة عند الليدي "**دورتيمر**"، وفي أحد الأيام انفصل الفص الألماس عن خاتم الليدي فطلبت من الآنسة "**ريتشاردز**" سكرتيرتها أن تأخذه إلى المدينة لإصلاحه، أظن إلى هذه النقطة أن القصة مشابهة تماما لقصتك؟

وطرأت للآنسة "**ريتشارد**" الفكرة نفسها التي راودتك أنت: حصلت على نسخة مطابقة تماما للخاتم لكنها كانت فتاة بعيدة النظر؛ فأدركت أنه في يوم ما ستكتشف الليدي "**دورتيمر**" حقيقة الخاتم وستدرك عندئذ من الذي قام باستبداله.

فماذا حدث؟ غيرت الفتاة من لون وطريقة تصفيف شعرها وحضرت إليَّ، أرتني الخاتم حتى أتأكد أنه حقيقي وتزول أي شكوك قد تراودني، وبعد أن اتفقنا على خطة استبدال الخاتم أخذت الفتاة الخاتم الحقيقي إلى الجوهري الذي أعاده بدوره إلى الليدي "**دورتيمر**".

وأمس مساء تسلمت الخاتم الآخر المزيف عند محطة "**واترلو**". وكانت الآنسة "**ريتشاردز**" تعتقد أن السيد "**لوتريل**" لا يعرف شيئا عن الأحجار الثمينة لكن لمجرد رغبتي في أن أطمئن نفسي على أن كل شيء على ما يرام، طلبت من أحد أصدقائي، وهو خبير بالجواهر - أن يستقل القطار نفسه مع "**لوتريل**" ويفحص الخاتم في أثناء الرحلة. وبمجرد نظرة واحدة أنبأني أن هذه الجوهرة ليست حقيقية وأنها تقليد رائع.

هل أدركت الهدف الآن يا سيدتي؟ عندما تكتشف الليدي "**دورتيمر**" حقيقة الخاتم المزيف سوف تتذكر الراقص الجذاب الذي خلع الخاتم من إصبعها في أثناء فترة الظلام، وسوف تستقصي الأمر وتعلم أن الراقصين الأصليين قد دفع لهم مبلغ من المال لقاء عدم الحضور ثم يصل الأمر في النهاية إلى مكتبي، وعندئذ تبدو قصتي عن المدعوة السيدة "**سان جون**" في منتهى الضعف، قصة واهية تماما.

هل تدركين الآن لماذا لم أقبل أي أجر منك؟ أنا أعد الناس بالسعادة ولكنني **قطعًا** لم آتِك بالسعادة التي تنشدينها، لكن أريد أن أقول لك شيئا واحدا... أنت صغيرة السن، وربما كانت هذه أول محاولة لك من هذا القبيل. أما أنا فعندي الكثير من الخبرة في أمو الإحصائيات وأستطيع أن أؤكد لك أن سبعة وثمانين في المائة - تصوري سبعة وثمانين في المائة - من محاولات الاحتيال تبوء بالفشل، فكري جيدا في هذا. وهبَّت الفتاة واقفة:

- أيها الوغد اللئيم، تستدرجني وتسخر مني حتى أنك طلبت مني أن أدفع المصاريف، وطيلة الوقت وأنا معتقدة... واختنق صوتها وبدأت تهرول ناحية الباب وصاح بها السيد "**باين**":

- الخاتم، لقد نسيته. واختطفت الخاتم من يده وطوحت به من النافذة المفتوحة،

وخرجت مسرعة وصفقت الباب خلفها بشدة.

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل الخامس

السيد "**ريجينالد ويد**" : الزوج

إيريس: الزوجة

السيدة "**ماسنجتون**" :صديقة الزوجة

سنكلير جوردان: شخصية غير محورية

مادلين دي سارا: موظفة تعمل لحساب "**باركر باين**"

❖❖❖❖❖

الفصل الخامس
مشكلة زوج قلق

لا شك في أن أبرز صفات السيد "**باركر باين**" ما في سلوكه من عطف وحنان، وهو سلوك يوحي بالثقة. إنه يعرف جيدا مدى الرهبة التي تصيب زبائنه بمجرد دخولهم مكتبه؛ فعليه أن يمهد أمامهم الطريق ليفتحوا له قلوبهم. في هذا الصباح كان يجلس في مواجهته عميل جديد يدعى السيد "**ريجينالد ويد**"، وأدرك السيد "**باين**" من فوره أن السيد "**ويد**" هذا من ذلك الطراز الذي يجد صعوبة شديدة في التعبير عمًّا في نفسه، ذلك الطراز الذي يجد نفسه عاجزا عن الإفصاح عمًّا يتصل بالانفعالات والعواطف. كان السيد "**ويد**" رجلا طويل القامة، عريض المنكبين له وجه لفحته الشمس وعينان زرقاوان. جلس أمامه يعبث بشاربه الصغير على غير وعي منه وهو ينظر إليه كأنه حيوان أبكم. ثم اندفع يقول:

– رأيت إعلانك. وفكرت في أن أحضر إليك. مجرد محاولة. فمن يدري؟ وأدرك السيد "**باين**" ما يحاول الرجل جاهدا أن يقول:

– طبعا عندما تسوء الأمور فإن الإنسان يكون على استعداد ليجرب أي شيء.

– تماما.. تماما. إنني مستعد لأن أجرب أي شيء؛ فاموري قد ساءت يا سيد "**باين**"،

لا أدري ماذا أفعل. الأمر شاق عليَّ كما تعلم، شاق جدًّا.

– وهنا يأتي دوري، أنا أعرف ما يجب أن أفعله. إنني خبير في المشاكل الإنسانية.

– لكن هذه المشكلة صعبة جدًّا.

– ليس تماما؛ فمشاكل الإنسان يمكن تقسيمها إلى بضعة أقسام: هناك الصحة أو الملل أو زوجات في مشاكل بشأن أزواجهن أو أزواج... وصمت السيد "**باين**" لحظة ثم أضاف:

– لهم مشاكل مع زوجاتهم.

– هذه هي المشكلة بالضبط.

– إذن. قُصَّ عليَّ مشكلتك.

– ليس هناك شيء كثير يمكن أن يقال... زوجتي تريد مني الطلاق لكي تتزوج شخصا آخر.

– هذا أمر شائع جدًّا هذه الأيام، لكنك أنت لا ترغب في الطلاق؟

– أنا أحبها نعم، أحبها للغاية. كان كلام الرجل بسيطا وعاديا، ولو أنه قال إنه يعبدها ويعبد الأرض التي تسير عليها وسيقتل نفسه من أجلها – ما أحدثت كلماته في نفس السيد "**باين**" أثرا أقوى مما تركته هاتان الكلمتان البسيطتان. وأضاف السيد "**ويد**":

– ومع ذلك، فما الذي يمكنني عمله؟ إن الإنسان يجد نفسه في مثل هذه الحالات عاجزا تماما. إذا كانت هي تفضل الآخر فليس هناك ما أستطيع عمله إلا أن أتنحى؛ فلست أرغب في أن أدفع بها إلى المحاكم. ونظر إليه السيد "**باين**" بإمعان:

– لكنك حضرت لرؤيتي، لماذا؟ فضحك الآخر بخجل:

– الحقيقة لا أدري. أنا لست موفور الذكاء ولا أستطيع أن أفكر جيدا، وخطر لي أنك ربما تستطيع أن تقترح عليَّ كيف أتصرف؛ فأمامي ستة أشهر. وقد وافقت هي على ذلك، وإذا كانت لا تزال عند رأيها بعد مضى ستة أشهر فعليَّ أن أنسحب، فربما استطعت أنت أن ترشدني إلى ما يجب عمله؛ لأن سلوكي حتى الآن يضايقها ويكدر صفوها. وكما ترى يا سيد "**باين**" فأنا إنسان عادي جدًّا، أهوى الرياضة وأمارس الجولف والتنس، لكن لا علاقة لي إطلاقا بالموسيقى أو الفن، أما زوجتي فتحب السينما والأوبرا والحفلات الموسيقية، من الطبيعي أنها تتضايق مني، وهذا الشخص الآخر شخص لعين،

إنه يطيل شعره، ويفهم جيدا في شؤون الفن والموسيقى ويتحدث عنها بلباقة، وأنا لاأستطيع ذلك. الحقيقة أن امرأة ذكية وجميلة لابد من أن تكون معذورة إذا سئمت أن تعيش مع حمار مثلي. وتنهد السيد "**باين**":

– منذ متى وأنتما متزوجان؟

– تسع سنوات.

– وطبعا كنت تتبع هذه الطريقة منذ البداية، وهذا خطأ شنيع يا سيدي العزيز. لاتتبع أبداً طريقة التواضع مع النساء، فالمرأة تعاملك دائما بالطريقة نفسها التي تظهر بها أنت، الواجب في حالات كهذه أن تفخر بمقدرتك الرياضية، وتتحدث عن الفن والموسيقى باعتبارهما الكلام الفارغ الذي تحبه زوجتك، ويمكنك حتى أن تعيرها لأنها لا تستطيع أن تمارس أي نوع من الرياضة. في الزواج – يا عزيزي – التواضع لا يجدي أبدا؛ فلا توجد المرأة التي تستطيع تحمل هذا، ولا عجب أن زوجتك تصرفت بهذا الشكل. ونظر السيد "**ويد**" إليه بارتباك:

– إذن فما الذي أستطيع أن أفعله الآن؟

– هذا سؤال عسير. أنا ما تستطيع عمله الآن كان يجب أن تعمله منذ تسع سنوات، فات الوقت الآن، يجب اتباع طرق جديدة. هل كانت لديك علاقات بنساء أخريات؟

– بالطبع لا.

– حتى ولا مجرد غزل؟

– أنا لم أهتم قط بالنساء.

– وهذا خطأ؛ إذن يجب أن تبدأ الآن. ونظر إليه "**ويد**" بانزعاج:

– أعتقد أنه لا يمكنني... أعني أن..

– لن يسبب لك هذا الأمر أي إزعاج؛ فستقوم إحدى موظفات مكتبي بالعملية، وهي التي سترشدك إلى ما يجب عمله، وطبعا كل ما سيحدث بينكما سيكون مجرد علاقة عمل. وتنهد السيد "**ويد**" بارتياح:

– جميل جداً، لكن ألا تعتقد أن تصرفا كهذا قد يدفع "**إيريس**" إلى الإلحاح في طلب الطلاق؟

– يبدو أنك لا تعرف طبيعة البشر جيدا يا سيد "**ويد**" وخاصة طبيعة المرأة. في حالتك الراهنة تعتبرك المرأة مجرد سلعة غير مطلوبة ولا أحد يرغب فيك؛ فما الذي يهم المرأة من شخص لا يرغب فيه أحد، لا نفع له إطلاقا؟ والآن فلتنظر إلى الأمر من زاوية أخرى، لنفرض أنك تتوق إلى الحصول على حريتك بقدر ما تريد هي حريتها.

– يسرها ذلك طبعا وتغتبط له...

– المفروض أنها ستغتبط لكن هذا لن يحدث، سترى أنك حزت إعجاب فتاة فاتنة، فتاة في إمكانها أن تختار من الرجال من تشاء، هذا سيرفع من أسهمك كثيرا، وستدرك زوجتك أن الناس سيقولون إنك هجرتها لأنك مللتها ولأنك تسعى وراء امرأة أخرى أكثر جاذبية، وهذا هو ما سوف يحز في نفسها.

– هل تعتقد هذا؟

– أنا واثق بهذا، لن تصبح بعد الآن "**ريجي**" المسكين وإنما ستعود هذا الوغد "**ريجي**"، وهنا يكمن كل الفرق، وستحاول زوجتك، دون أن تفرط في الرجل الآخر، أن تكسب حبك مرة أخرى لكن لن تلين، سترددد لها كل ما كانت تقوله لك هي: من الأوفق أن ننفصل، أن طباعكما لا تتفق، أنك لا تستطيع فهمها كما لا تستطيع هي فهمك، لكن دعنا من هذه التفاصيل الآن. سوف تصدر إليك التعليمات اللازمة عندما يحين الوقت. قال السيد "**ويد**" وهو مازال متشككا في الأمر:

– هل أنت متأكد أن خطتك هذه ستؤدي الغرض المطلوب؟

– لا أستطيع أنا أن أجزم بأنها ستوفي بالغرض؛ فهناك احتمال بأن زوجتك تحب الآخر حبا شديدا، وفي هذه الحالة لن تتأثر بأي شيء تفعله، لكنني أعتقد أن هذا غير صحيح، أعتقد أن الملل هو الذي دفعها إلى هذه العلاقة... ملل من الإخلاص المتناهي والوفاء التام الذي غمرتها أنت بهما دون تروٍ. وإذا اتبعت نصائحي وإرشاداتي أعتقد أن النتيجة ستكون في صالحك بنسبة سبعة وتسعين في المائة.

– هذا يبدو معقولا. أنا مستعد، وبالمناسبة كم تتكلف هذه الخطة؟

– مائتي جنيه، تدفع مقدما. وأخرج "**ويد**" دفتر شيكاته.

❖❖❖❖❖

كان "**لوريمر كورت**" يبدو بديعا بعد الظهر، واستلقت "**إيريس ويد**" على كرسي مريح، وهي تبدو أقل بكثير من الخامسة والثلاثين عاما التي بلغتها، والفضل في هذا يرجع إلى المساحيق التي تتجمل بها. وكانت تتحدث إلى صديقتها السيدة "**ماسنجتون**" التي تربطها بها مودة شديدة، وكانت المرأتان تشكوان من نفس العلة: زوجان يهويان الرياضة ونادرا ما يتحدثان في أي شيء آخر، وكانت "**إيريس**" تقول:

– وهكذا يعيش الزوج ويدع زوجته تعيش أيضا. وردت عليها السيدة "**ماسنجتون**":

– أنت امرأة مدهشة يا عزيزتي. ثم أضافت بشوق:

– بالله أخبريني من هي هذه الفتاة؟ وهزت "**إيريس**" كتفيها:

– لا أدري. إن "**ريجي**" هو الذي عثر عليها، هي صديقته كما تعلمين، والغريب في الأمر أن "**ريجي**" لم ينظر من قبل إلى فتاة، جاء إليّ مرة وأخذ يتلعثم وأخيرا قال إنه يود أن يدعو هذه الآنسة "**دي سارا**" إلى قضاء عطلة آخر الأسبوع، طبعا ضحكت ساخرة والنتيجة أنها هنا الآن!!

– وأين قابلها زوجك؟

– لا أدري. كان شديد الغموض عندما سألته عن هذه النقطة بالذات.

– ربما كان يعرفها من مدة؟

– لا أعتقد ذلك. على العموم أنا مغتبطة جدًا بما حدث؛ فهذا سيسهل الأمور لي جدًا. لقد كنت في غاية التعاسة بخصوص "**ريجي**"؛ فإنه رجل طيب، وهو ما كنت أقوله دائما لـ"**سنكلير**". إن ما ننوي عمله سوف يسبب لـ"**ريجي**" ألما شديدا. لكن "**سنكلير**" كان يصر دائما على أن "**ريجي**" سوف يتغلب بسرعة على تعاسته، والظاهر أنه كان على حق. منذ يومين فقط كان "**ريجي**" في أشد حالات التعاسة. واليوم يدعو الفتاة إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع، الأمر كله مسلٍّ فقط. إنه ليسعدني أن أرى "**ريجي**" يمتع نفسه. ربما كان يعتقد هذا المسكين أنه سيثير غيرتي بهذا الشكل، طبعا كلام فارغ. قلت له إنه يستطيع أن يدعو صديقته بكل سرور، ومسكين "**ريجي**" لو خطر له أن فتاة كهذه يمكن أن تهتم به، إنها تسلي نفسها.. مجرد تسلية. قالت السيدة "**ماسنجتون**":

– لكنها فتاة شديدة الجاذبية إلى درجة خطيرة، فتاة لعوب لا هم لها إلا الرجال،

ولاأظن إطلاقا أنها تكتفي بمجرد التسلية، ثم إنها ترتدي ملابس رائعة وباهظة التكاليف.

– ربما كنت على حق.

– ها هما قادمان.

كان "**ريجي ويد**" و"**مادلين دي سارا**" يسيران عبر الحديقة وهما يتكلمان ويضحكان ويبدوان في أشد حالات السعادة. وألقت "**مادلين**" بنفسها على مقعد وراحت تعبث بأصابعها في خصلات شعرها السوداء، كانت بحق فتاة رائعة الجمال.

– لقد كانت نزهة رائعة، وأشعر الآن بالحر الشديد، لابد أن مظهري في غاية الرداءة.

وبدا على "**ريجي ويد**" الارتباك، كان عليه الآن أن يقول شيئا اتفق عليه من قبل.

– إنك تبدين.. إنك تبدين.. ثم ضحك بارتباك:

– لا.. لن أستطيع أن أقولها. وتقابلت عيناه وعينا "**مادلين**"، كانت النظرة تدل على انسجام تام، ولم تفت هذه النظرة دون أن تلحظها السيدة "**ماسنجتون**" الخبيرة، واستدارت "**مادلين**" نحو مضيفتها:

– أنت تفتقدين الكثير بعدم لعبك الجولف، لماذا لا تمارسين هذه اللعبة؟ إن لي صديقة بدأت تمارسها منذ قليل وأصبحت ماهرة جداً فيها، وهي تكبرك في السن بكثير.

أجابتها "**إيريس**" ببرود:

– أنا لا أهتم كثيرا بهذه الأشياء.

– لماذا؟ ألا تهتمين بالرياضة؟ مسكينة! إنها تنشط الإنسان جداً، ثم إن فرص التدريب هذه الأيام أصبحت متاحة للجميع، ويمكن لأي شخص الآن أن يتقن أية لعبة. في الصيف الماضي تقدمت جداً في التنس ولكن مازال أمامي شوط بعيد في الجولف.

وتدخل "**ريجي**":

– كلام فارغ، كل ما تحتاجين إليه هو قليل من الإرشاد، ثم إنك لعبت بمهارة اليوم.

– ذلك لأنك علمتني كيف ألعب؛ فأنت مدرِّب عظيم. كثيرون لا يستطيعون أن يفعلوا مثلك لكنك موهوب. مدهش أن يكون الشخص في مثل مقدرتك. إنك قادر على أن تفعل أي شيء.

– لا لا. أنا أعرف أنه لا نفع فيَّ... لا أستطيع عمل شيء. ووجهت "**مادلين**"

حديثها إلى السيدة "**ويد**" :

– لا ريب أنك فخورة به جداً. كيف استطعت أن تحتفظي به كل هذه السنوات؟ لابد من أنك في منتهى البراعة أو أنك كنت تخبئينه في مكان ما. وصمتت مضيفتها وانحنت تلتقط كتابا كانت تقرؤه ويدها ترتجف، واستأذن "**ريجي**" لتغيير ملابسه وتركهما.

– جميل منك أن تستضيفيني هنا. نساء كثيرات يغرن أشد الغيرة على أزواجهن، أنا شخصيا أعتقد أن الغيرة أمر تافه، أليس كذلك؟

– قطعا. أنا نفسي لم أشعر قط بالغيرة على "**ريجي**".

– هذا من حسن الحظ لأن "**ريجي**" من الرجال الجذابين جداً للنساء، أنا شخصيا صدمت عندما عرفت أنه متزوج، كل الرجال الجذابين يتزوجون صغارا.

– يسرني أنك تجدين "**ريجي**" جذابا.

– إنه فعلا جذاب، شكله وسيم وبارع جداً في الرياضة وتظاهره بعدم المبالاة أمام النساء، وهذا يدفعنا نحن النساء نحوه.

– أعتقد أن لك أصدقاء كثيرين بين الرجال؟

– طبعا. أنا أُفضل صحبة الرجال على النساء؛ فالنساء دائما يكرهنني ولا أدري لماذا.

– ربما لأنك ودودة جداً مع أزواجهن. قالتها السيدة "**ماسنجتون**" وهي تضحك.

– أحيانا كثيرة يشعر الشخص بالأسى نحوهم؛ فهناك رجال كثيرون مرتبطون بزوجات مملات. زوجات مترفعات متحذلقات، والرجال يرغبون في امرأة ذكية نشيطة يستطيعون التحدث إليها؛ لذلك أقرُّ الاتجاهات الحديثة بخصوص الزواج والطلاق. يستحسن أن يبدأ الإنسان بداية جديدة وهو مازال صغيرا مع شخص يتفق معه مزاجا ورأيا، هذا أوفق للجميع في النهاية. النساء المتحذلقات يجدن دائما من يلائمهن من هذا الطراز الذي يطلق شعره، أظن أن أوفق شيء هو أن يتخلص الإنسان من كل ارتباطاته ويبدأ من جديد، أليس كذلك يا سيدة "**ويد**"؟

– بكل تأكيد. وأحست "**مادلين**" أن هناك نوعا من البرود الشديد حل بينهما، فاعتذرت بأنها تريد أن تغير ملابسها وتركت المكان. وما إن ابتعدت حتى قالت السيدة

"**ويد**" :

– مخلوقات كريهة بنات هذه الأيام، رؤوسهن خاوية تماما من أي تفكير. فردت عليها السيدة "**ماسنجتون**" :

– هذه الفتاة لديها فكرة واحدة في رأسها، هذه الفتاة مُدلهة في حب "**ريجي**" .

– غير معقول.

– بل قطعا صحيح، ألم تلاحظي نظراتها إليه؟ ثم إنه لا يهمها إطلاقا أن يكون متزوجا أم لا، والظاهر أنها عقدت العزم على أن تحتفظ به لنفسها، وفي رأيي أن هذا أمر بشع. وصمتت السيدة "**ويد**" برهة، ثم ضحكت بارتباك:

– ومع ذلك، فما يعنيني أنا من الأمر؟ وصعدت السيدة "**ويد**" إلى غرفتها لتغير ملابسها هي الأخرى، فوجدت زوجها يغني وهو يرتدي ملابسه.

– هل أمضيت وقتا طيبا يا عزيزي؟

– نعم، إلى حد ما.

– رائع أريد أن أراك دائمًا سعيدا.

لم يكن باستطاعة "**ريجي ويد**" أن يتقن دوره لكن ارتباكه وشعوره الداخلي ساعداه كثيرا. كان يتفادى نظرات زوجته، كان يشعر بخجل شديد ويكره الدور الذي يقوم به، وكل هذا ساعده على تمثيل دور الشخص المعذب الضمير. وسألته فجأة زوجته:

– منذ متى وأنت تعرف هذه الفتاة؟

– مَن؟

– الآنسة "**دي سارا**" طبعا.

– آه! لا أدري، من فترة.

– غريبة. إنك لم تذكر لي شيئا عنها على الإطلاق.

– صحيح؟ ربما نسيت.

– نسيت؟ وغادرت السيدة "**ويد**" الغرفة وهي ممتلئة بالحنق. وبعد الفراغ من الشاي اصطحب السيد "**ويد**" الآنسة "**دي سارا**" ليريها حديقة الزهور، وما أن بعدا عن الأنظار حتى اندفع قائلا:

– اسمعي، أظن أنه يستحسن أن ننهي هذه التمثيلية؛ فمنذ برهة حدجتني زوجتي

بنظرة مملوءة بالكراهية.

– لا تقلق نفسك؛ فكل شيء يسير على ما يرام.

– أتعتقدين ذلك؟ لا أريد أن تكرهني. لقد قالت بعض الأشياء الجارحة في أثناء تناول الشاي.

– قلت لك لا تقلق نفسك، كل شيء يسير حسب الخطة.

– أصحيح هذا؟

– نعم. ثم أردفت بصوت هامس:

– زوجتك الآن تتلصص حول المكان، تريد أن تعرف ماذا نفعل، فيستحسن أن تُقبِّلني.

– أضروري هذا؟

– هيَّا قَبِّلني. وقبَّلها السيد "**ويد**"، ولمَّا كان ينقصه الحماس فإن "**مادلين**" تغلبت على ذلك بسرعة وألقت بذراعيها حوله. فتراجع السيد "**ويد**" بضع خطوات.

– هل كانت القبلة كريهة إلى هذا الحد؟ قالت:

– لا أبداً، إنما كانت مفاجأة. هل مضى علينا هنا وقت كافٍ؟ وعادا إلى الحديقة حيث أخبرتهما السيدة "**ماسنجتون**" بأن السيدة "**ويد**" قد ذهبت لتستريح قليلا، وبعد فترة لحق السيد "**ويد**" بـ "**مادلين**":

– حالتها سيئة جدًّا، إنها في شبه هيستريا.

– رائع! لقد رأتك وأنت تقبلني. وهذا بالضبط ما كنا نريده.

– أعرف ذلك، وكل ما استطعت أن أقوله إننا فجأة وجدنا أنفسنا نتبادل قبلة.

– هذا أيضا عظيم.

– قالت إنك تنصبين شركك حولي وتريدين أن تتزوجيني. وإنك لا تساوين شيئا، وهذا ضايقني لأنه غير صحيح بالنسبة إليك، أعني أنك تقومين بمهمة فقط، قلت لها إنني أُكن لك أشد الاحترام وأن ما تقوله عنك غير صحيح، وأعتقد أنني غضبت جداً عندما تكلمتْ عنك بهذه اللهجة.

– هذا رائع جدًّا.

– ثم طلبتْ مني أن أبتعد عنها، وقالت إنها لا تريد أن تخاطبني بعد اليوم وتريد أن

تأخذ حاجاتها وترحل. وبدا على السيد "**ويد**" حيرة شديدة، فابتسمت له "**مادلين**" مشجعة:

– سأقول لك الرد على هذا: قل لها إنك أنت الذي ستأخذ حاجاتك وترحل وتترك المدينة بأسرها.

– لكن لا أريد أن أرحل.

– أعرف ذلك، ولن يقتضيك الأمر أن ترحل، كل ما هنالك أنك ستدفع زوجتك إلى نبذ فكرة إطلاق الحرية لك لتتمتع كما تشاء. وفي صباح اليوم التالي كانت لدى "**ريجي ويد**" أخبار جديدة.

– لقد قالت لي إنها فكرت في الأمر، وقررت أنه ليس من العدل أن تترك المنزل الآن طالما وعدت أن تمكث ستة أشهر، لكنها قالت إنه طالما أدعو صديقاتي إلى المنزل فإن لها أن تدعو أصدقاءها، ولذلك قررت أن تدعو "**سنكلير جوردان**".

– هل هو صديقها المعهود؟

– أجل، ومن المستحيل أن أرفض وجوده في المنزل.

– يجب عليك أن تقبل، لا تنزعج؛ فسوف أتولى أنا أمره، قل لها إنك فكرت في الأمر ولا مانع لديك من دعوته، وإنك تعرف أنها لا تمانع إذا طلبت مني أن أبقى أنا الأخرى. لا تفقد أعصابك، كل شيء يسير سيرا حسنا، وبعد أسبوعين تنتهي كل متاعبك.

– أسبوعين فقط؟ هل تعتقدين فعلا ذلك؟

– أعتقد أنني على يقين.

❖❖❖❖❖

بعد أسبوع دخلت "**مادلين دي سارا**" مكتب السيد "**باركر باين**" وجلست على كرسي وهي تحس بالإرهاق. بادرها قائلا:

– أهلا بك يا ملكة الفاتنات.

– فاتنات!! وضحكت "**مادلين**" بجفاء:

– في حياتي لم أكابد مثل هذه المشقة في مهنتي كفاتنة؛ فهذا الرجل متيم بزوجته

إلى درجة غريبة. وابتسم السيد "**باركر باين**" :

– فعلا، على أية حال لقد سهل هذا من مهمتنا؛ فما كنت لأُعرض أي شخص لجاذبيتك بهذه البساطة. وضحكت الفتاة:

– ليتك عرفت مدى الصعوبة التي واجهتها لأحمله على تقبيلي، والتظاهر أن الأمر راق له.

– ها هي تجربة جديدة بالنسبة إليك يا عزيزتي. وهل انتهت مهمتنا؟

– أجل. أعتقد أن كل شيء على ما يرام الآن، كانت هناك مشادة حادة مساء أمس. دعني أفكر.. إن آخر تقرير قدمته لك كان منذ ثلاثة أيام.

– أجل.

– كما قلت لك. بمجرد نظرة إلى هذه الحشرة "**سنكلير جوردان**" ترك كل شيء وركز اهتمامه فيَّ وحدي؛ فقد ضللته بشبابي فاعتقد أني على شيء من الثراء، وثارت السيدة "**ويد**" طبعا؛ فقد وجدت رجليها يركزان اهتمامهما فيَّ، وقد تصرفت بطريقة عرفت منها بجلاء إلى أي الرجلين كنت أميل: لقد سخرت من "**سنكلير جوردان**" أمامه وأمامها، سخرت من ملابسه، من شعره الطويل ومن هيئته المزرية.

– مناورة بارعة يا صغيرتي.

– وأمس وصلت الأمور إلى درجة الغليان، وانفجرت السيدة "**ويد**" تذكر علانية كل ما في نفسها: اتهمتني بأنني أريد أن أدمر حياتها الزوجية، وأشار "**ريجي ويد**" إلى موضوع "**سنكلير جوردان**" فقالت إن هذا ما كان إلا نتيجة لتعاستها وشعورها بالوحدة، كانت تشعر بأن زوجها يهملها ولا تدري لماذا، قالت إنهما كانا دائما في منتهى السعادة، وإنها تعبده وإنه يعلم ذلك تماما، وإنها لا تريد أحداً في الدنيا سواه.

وقد تدخلت أنا في الحديث وقلت إنه لم يعد هناك سبيل إلى التراجع الآن، ولعب السيد "**ويد**" دوره بمهارة؛ فقال إنه لم يعد يهمه أي شيء وإنه ينوي الزواج بي، وما على زوجته إلا أن تفعل ما شاءت مع "**سنكلير جوردان**"، وإنه لم يعد هناك أي داعٍ إلى التلكؤ في إجراءات الطلاق، ولا فائدة ترجى من الانتظار ستة أشهر أخرى.

وقال إنه سيتصل فورا بمحاميه، إنه لا يستطيع أن يعيش بعيدا عني، فوضعت السيدة

"**ويد**" يدها على صدرها وقالت إن قلبها ضعيف، فأعطيناها قليلا من عصير الليمون. ولم يتراجع السيد "**ويد**"، وفي هذا الصباح ذهب إلى المدينة ليقابل محاميه، وليس عندي أي شك في أنها تسعى خلفه الآن. قال السيد "**باين**" بمرح:

– إذن فكل شيء على ما يرام. تمت القضية على أكمل وجه. وفي هذه اللحظة انفتح الباب بعنف وظهر على عتبته "**ريجي ويد**"، وقال بشوق:

– هل هي هنا؟ أين هي؟ وما إن لمح "**مادلين**" حتى اندفع نحوها وأمسك بكلتا يديها:

– حبيبتي، لقد أدركت جيدا أن كل ما قلته أمس كان صحيحا، كل كلمة قلتها لـ"**إيريس**" عنيتها تماما. لا أدري ما الذي حجب الحقيقة عني طيلة هذه المدة لكن في الأيام الثلاثة الأخيرة أدركت كل شيء. وسألته "**مادلين**" باستكانة:

– ماذا أدركت؟

– إني أعبدك. إنك المرأة الوحيدة التي أحبها في هذه الدنيا. ستحصل "**إيريس**" على طلاقها وبعدها تتزوجينني أنت، قولي لي سوف تتزوجينني، أليس كذلك؟ هل تقبلين يا "**مادلين**"؟ أنا أعبدك، أحبك. واحتوى "**مادلين**" المبهورة بين ذراعيه في اللحظة التي فتح فيها الباب من جديد لتدخل امرأة تبدو في حالة كرب شديد، وما إن رأت "**ويد**" حتى صاحت:

– هذا ما كنت واثقة به، لقد تبعتك وأنا أعرف تماما أنك ستقابلها. وحاول السيد "**باين**" أن يتغلب على دهشته وهو يقول:

– أريد أن أؤكد لك يا سيدتي... لكنها لم تعره انتباها واستمرت في كلامها:

– "**ريجي**"، هل تريد أن تحطم قلبي؟ أرجوك أرجوك أن تعود إليَّ!! لن أذكر هذا الموضوع إطلاقا، سأتعلم الجولف إن أردت، لن أصادق أحدا بغير موافقتك. أرجوك بعد كل هذه السنوات والأيام السعيدة التي قضيناها سويا... قال لها "**ويد**" بإصرار:

– أنا لم أعرف للسعادة طعما حتى اليوم. كفاك رياء يا "**إيريس**". إنك كنت تريدين الزواج بهذا الأحمق "**جوردان**"؛ فلماذا لا تفعلين ذلك الآن؟ وصاحت السيدة "**ويد**":

– إنني أكرهه، أكره حتى شكله. ثم استدارت نحو "**مادلين**":

– أيتها الخبيثة، أيتها الحشرة الدنيئة، تسرقين زوجي مني! فردت عليها " **مادلين**" بشرود:

– أنا لا أريد شيئا من زوجك. فصاح بها السيد "**ويد**" في ألم:

– "**مادلين**".

– أرجوك، دعني وشأني.

– أصغي إليَّ، أنا صادق في كل ما قلته لك. فصاحت "**مادلين**" في انفعال:

– دعني وشأني. اذهب عني. وتحرك "**ريجي**" ببطء نحو الباب:

– سوف أعود؛ وأنا لم أيأس بعد. وخرج وصفق الباب وراءه، وصاحت السيدة "**ويد**" ثانية:

– الفتيات أمثالك يجب أن يجلدن بالسياط، كان "**ريجي**" ملاكا حتى عرفك. وهرعت خلف زوجها وهي تبكي، وتبادل السيد "**باركر باين**" و "**مادلين**" النظرات.

– لم أتمكن من المقاومة. إنه رجل طيب جدًّا لكنني لا أريد الزواج به. لم أكن لأظن إطلاقا أن الأمور يمكن أن تتطور إلى هذا الحد. ليتك عرفت مدى الصعوبة التي واجهتها لأقنعه بأن يقبلني!! وقال السيد "**باركر باين**" بأسف واضح:

– أعتقد أنه كان سوء تقدير من ناحيتي. وهز رأسه وهو يخرج ملف السيد "**ويد**" من درجه وكتب عليه:

فشل لأسباب طبيعية كان يجب التنبؤ بها.

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل السادس

السيدة **ابنر رايمر**: امرأة ثرية

كونستانتين: طبيب نفساني

السيدة "**جاردنر**": مساعدة الطبيب

جو ولش: عامل المزرعة

الفصل السادس
قضية امرأة غنية

كان السيد "**باركر باين**" قد سمع من قبل باسم السيدة "**ابنر رايمر**"، وقد أدهشه أن يراها تطلب مقابلته. ودخلت السيدة "**رايمر**" إلى مكتبه، كانت طويلة القامة، عريضة المنكبين، ومترهلة الجسم، ترتدي معطفا واسعا من الفراء الثمين يزيد من ضخامة مظهرها، كان وجهها كبيرا تغطيه المساحيق، وشعرها الأسود مصففًا بعناية وقبعتها مُحلاة بريش النعام. وألقت بنفسها على المقعد وبادرت السيد "**باين**" :

– صباح الخير. إذا كنت تعتقد أن وراءك أي نفع فساعدني على إنفاق ثروتي.

– طلب غريب جداً لا يطلبه الكثيرون هذه الأيام. هل تجدين صعوبة في ذلك ياسيدتي؟

– نعم، صعوبة شديدة. عندي ثلاثة معاطف من الفراء، وعدد لا يحصى من الفساتين وسيارة، ومنزل في "**بارك لين**"، حتى اليخوت أملك واحدا منها مع أني لا أحب البحر، وعندي عديد من الخدم وقد سافرت إلى معظم بلدان العالم، ولا يوجد الآن أي شيء يمكن أن أشتريه أو أن أعمله.

– هناك المستشفيات.

– ماذا؟ أعطي نقودي للآخرين؟ هذا مستحيل؛ فهذه الثروة نتيجة عمل، عمل شاق. وإذا اعتقدت أنني سوف أمنحها للآخرين ببساطة كما لو كانت حفنة تراب فأنت مخطئ. أنا أريد أن أنفق هذه النقود، أنفقها بنفسي وأتمتع بها؛ فإذا كانت لديك أي أفكار مفيدة فسأجزل لك العطاء.

– اقتراح جذاب، فقط يجب أن تحدثيني أكثر عن نفسك.

– بكل سرور؛ فأنا لا أشعر بخجل فيما يختص بنشأتي... عملت في عزبة، كنت فتاة صغيرة في ذلك الوقت، عمل شاق ومضن، ثم نشأت علاقة بيني وبين "**ابنر**" وكان عاملا في الطاحونة المجاورة، واستمرت علاقتنا ثماني سنوات تزوجنا بعدها.

– هل كنت سعيدة؟

– جداً؛ فقد كان رجلا طيبا، كان علينا أن نكافح كثيرا؛ فقد تعطل عن العمل

مرتين، وكان عندنا أولاد أربعة في ذلك الوقت: ثلاثة أولاد وبنت، ماتوا كلهم في سن مبكرة، كان من الممكن أن يتغير كل شيء لو عاشوا. وارتخت تعابير وجهها المتوترة، وظهر عليها فجأة كما لو كان عمرها قد نقص عدة سنوات!

- كان "ابنر" يعاني ضعفا في صدره؛ لذلك رفضوا تجنيده في الحرب، وكان ناجحا في عمله كرئيس للعمل. وأنجز عملية معينة بنجاح وكوفئ بسخاء، فاستغل مكافآته في العمل لحساب نفسه، وسرعان ما أصبح صاحب عمل حيث اشترى مصنعين كانا على وشك الإفلاس وأدارهما بنجاح، وبعد هذا أصبح كل شيء سهلا وأخذت النقود تنهال علينا، ومازالت... كان الأمر في بدايته مشوقا: منزل وخدم، لا تعب في المطبخ ولا غسيل ولا تنظيف، أرتدي الحرير وأدق الجرس لأطلب الشاي، كنت متمتعة بحياتي كل المتعة، أسافر إلى "**باريس**" و "**الريفيرا**" و...

- ثم ماذا حدث؟

- اعتدنا الرفاهية، لم تعد هناك أية متعة في حياة الرفاهية هذه؛ حتى الأكل لم نعد نشتهيه، مع أن في مقدورنا أن نطلب أي طعام من أي مكان في الدنيا. بدأ "ابنر" يقلق على صحته، وأنفقنا الكثير على الأطباء بلا جدوى. جربوا معه طرق علاج مختلفة لكنها ضاعت كلها هباء، ثم مات صغيرا؛ فقد كان عمره ثلاثا وأربعين سنة.

ولقد مضى على وفاته الآن خمس سنوات، ومازالت النقود تتدفق، ولم يبقَ هناك شيء يمكنني أن أشتريه؛ فعندي كل شيء؛ ففيمَ أنفق كل هذه الأموال إذن؟ دبرني أيها المستشار العبقري..

- أفهم من هذا أن حياتك أصبحت مملة، ولم يعد هناك شيء يثير اهتمامك.

- إنني أكره هذه الحياة. ليس لي أصدقاء؛ فكلهم يسعون وراء نقودي ويضحكون عليّ، أصدقاء الأيام القديمة لا شأن لهم بي، يتضايقون إذا ذهبت لزيارتهم بسيارتي. هل تستطيع عمل شيء من أجلي؟ هل يمكنك أن تقترح أي شيء؟

- ربما استطعت، هذا صعب إلى حد ما، غير أنني أعتقد أن هناك فرصة للنجاح، أعتقد أن بإمكاني أن أعيد لك ما فقدته: اهتمامك بالحياة.

- وكيف يتحقق ذلك؟

- هذا سر المهنة، أنا لا أكشف عن أساليبي. السؤال هو: هل تقبلين المجازفة؟ إنني

لاأضمن النجاح، ولكنني أظن أن هناك احتمالا لا بأس به في النجاح.

– وكم تتكلف هذه المجازفة؟

– سوف أضطر إلى الالتجاء إلى أساليب صعبة، وقد يكلفك ذلك كثيرا... ألف جنيه تدفع مقدما.

– لا يهمني، سأدفع لك. أنا متعودة أن أدفع أغلى الأثمان لكنني معتادة أيضا أن أحصل دائما على مقابل لما أدفعه.

– لا تخشي شيئا؛ فستحصلين حتما على مقابل لنقودك. ونهضت السيدة "**رايمر**" من مقعدها:

– سأرسل إليك الشيك هذا المساء. لست أدري ما الذي يدفعني إلى الثقة بك، ربما أكون مغفلة لأني صدقتك عندما أعلنت في الصحف أنك تستطيع إسعاد الناس.

– هذه الإعلانات تكلفني الكثير، وإذا كنت غير صادق في كلامي فإن نقودي تكون قد ضاعت هباء. إنني عليم بما يسبب التعاسة ولديَّ فكرة واضحة عن كيفية معالجتها. وهزت السيدة "**رايمر**" رأسها بارتياب وخرجت، ودخل المكتب "**كلود لوتريل**" وهو يسأل:

– أهذا شيء في اختصاصاتي؟ وهز السيد "**باين**" رأسه:

– لا. ليس على هذا القدر من البساطة؛ فهذه الحالة صعبة ومعقدة، ويجب أن نقوم ببعض المجازفات، أشياء غير عادية.

– اختصاص السيدة "**أوليفر**"؟

– السيدة "**أوليفر**" لا تفيد في مثل هذه الحالة، أنا أفكر في طريقة أخرى جريئة. اطلب لي الدكتور "**أنتروباس**".

– "**أنتروباس**"؟

– أجل. سنحتاج إلى خدماته.

❖❖❖❖❖

بعد أسبوع دخلت السيدة "**رايمر**" مرة أخرى مكتب السيد "**باركر باين**" ووقف يحييها قائلا:

– هذا التأخير كان ضروريا؛ فقد كان علينا أن نرتب أشياء كثيرة، وكان عليَّ أن أستخدم رجلا غير عادي حضر خصيصا من "أوربا". وضغط السيد "**باين**" على زر الجرس ودخلت فتاة جميلة ترتدي زي الممرضات.

– هل كل شيء معد يا آنسة "**دي سارا**"؟

– أجل؛ فالدكتور "**كونستانتين**" مستعد. وسألته السيدة "**رايمر**" باندفاع:

– ما الذي ستفعله بي؟

– سوف نريك بعض سحر الشرق يا سيدتي العزيزة. وصعدت السيدة "**رايمر**" خلف الممرضة إلى الطابق العلوي وأُدخلت غرفة لا تمت بصلة إلى باقي المنزل، كانت كلها مؤثثة على الطراز الشرقي... سجاد فاخر يغطي أرضها، مقاعد وثيرة عليها وسادات ناعمة حريرية، وكان هناك رجل منهمك في إعداد القهوة وقدمته الممرضة إليها: الدكتور "**كونستانتين**"، كان يرتدي الملابس الأوربية، لكن وجهه كان أسمر اللون، وعيناه سوداوان ذواتا نظرات نفاذة.

– هل هذه هي المريضة؟

– أنا لست مريضة. وكان في صوت السيدة "**رايمر**" نبرة تحدٍّ.

– جسمك ليس مريضا لكن روحك متعبة، ونحن في الشرق نعرف كيف نعالج الأرواح. تفضلي بالجلوس وتناولي قدحا من القهوة. وجلست السيدة "**رايمر**" وتناولت الفنجان الصغير المقدم إليها وبدأت ترتشف القهوة بينما أخذ الدكتور يتكلم:

– هنا في الغرب يعالجون الجسد فقط، هذا خطأ؛ فالجسد مجرد آلة يمكننا أن نعزف عليها أي شيء... نغم مُتعب حزين أو نغم ضاحك سعيد، وهذا النغم الأخير هو ما سوف نحاول أن نقدمه لك. أنت غنية وسوف تستطيعين أن تتمتعي بثرائك، وستصبح الحياة مرة أخرى جديرة بالاهتمام، وهذا أمر سهل، سهل جداًّ.

وبدأ يسري في جسد السيدة "**رايمر**" شعور لذيذ من المخدر، وأخذت هيئة الطبيب والممرضة تتراقص أمامها، بدأت تشعر بالسعادة وبميل لذيذ إلى النوم. وبدأ كل شيء حولها يكبر ويكبر ويتسع. وحدق الدكتور إلى عينيها:

– نامي.. نامي، جفونك الآن ثقيلة، ستنامين بعد قليل. نامي.. نامي... وانطبقت

عينا السيدة "**رايمر**" وراحت تسبح في عالم غريب لكنه لذيذ ... وبعد أن فتحت عينيها بدا لها أن وقتا طويلا قد انقضى، تذكرت بعض الأشياء لكنها بدت لها غامضة مبهمة، أحلام غريبة وغير معقولة، بدا لها أنها استيقظت ثم عاودت أحلامها مرة أخرى. تذكرت أنه كانت هناك عربة وفتاة شرقية في زي الممرضات.

على كل حال، فقد كانت في فراشها الآن ومتيقظة تماما، لكن هل كان هذا فراشها؟ كان يبدو مختلفا بعض الشيء، يفتقد النعومة التي ألفتها، كان يشبه فراشها القديم في الأيام التي كادت أن تنسى، وتحركت قليلا فصدر صرير على الفراش، وكان سريرها في "**بارك لين**" لا يصدر صريرا لو تحركت عليه، وتلفتت حولها... من المؤكد أنها ليست في "**بارك لين**". هل في مستشفى؟ قطعا لا.

فإنه لايبدو على هذه الغرفة سمات المستشفى، كانت الغرفة شبه عارية، وكانت في الركن منضدة صغيرة عليها إناء وإبريق، وهناك منضدة للتجميل ذات أدراج عديدة ودولاب معدني لحفظ الملابس، أما الملابس المعلقة على الشماعة فكانت غريبة عليها لاعهد لها به، وكان الغطاء الذي فوق السرير مليئا بالرقع فغمغمت السيدة "**رايمر**":

– أين أنا؟ وفتح الباب ودخلت سيدة بدين ذات خدود حمراء مشمرة عن كميها وترتدي مريلة.

– ها قد استيقظت الآن. تفضل بالدخول يا دكتور. وفتحت السيدة "**رايمر**" فمها معتزمة أن تقول أشياء كثيرة، لكنها أمسكت ولم تتفوه بشيء؛ إذ وجدت أن الرجل الذي تبع المرأة داخلا الغرفة لم يكن يشبه الدكتور "**كونستانتين**"؛ فقد كان رجلا عجوزا محني الظهر يرتدي نظارة طبية سميكة. وتقدم الرجل من السرير:

– لا تخشي شيئا يا عزيزتي، كل شيء سيصير على مايرام.

– ماذا حدث لي؟ ماذا حدث لي؟

– أزمة بسيطة، كنت غائبة عن الوعي لمدة يوم أو اثنين لكن لا تقلقي بالك.

وصاحت المرأة البدين:

– لقد انزعجنا عليك جداً يا "**هانا**"؛ فقد كنت تهذين وتقولين أشياء غريبة جداً.

وقال الطبيب:

– كفى يا "**جاردنر**". لا يجب أن نزعج المريضة. سوف تكونين في أتم صحة بسرعة؛ فاطمئني يا عزيزتي. وقالت السيدة "**جاردنر**":

– واطمئني أيضا من ناحية العمل يا "**هانا**". إن السيدة "**روبرتس**" تساعدني وكل شيء يسير على ما يرام، فقط استريحي أنت يا عزيزتي. وسألتها السيدة "**رايمر**":

– لماذا تدعوني "**هانا**"؟ أجابت السيدة "**جاردنر**" في ارتباك:

– لأنه اسمك يا عزيزتي.

– أبداً، اسمي "**أماليا**".. "**أماليا رايمر**".. السيدة "**ابنر رايمر**". وتبادل الطبيب والسيدة "**جاردنر**" النظرات ثم قالت السيدة "**جاردنر**":

– حاولي أن تستريحي يا عزيزتي. وأردف الطبيب:

– نعم نعم. لا تجهدي فكرك بشيء. وانسحب الاثنان من الغرفة. وكانت السيدة "**رايمر**" مرتبكة تماما. لماذا يدعونني "**هانا**"؟ ولماذا هذه النظرات ذات المغزى؟ أين أنا الآن؟ وماذا حدث لي؟ ونهضت من الفراش لكن عندما وقعت ارتعشت رجلاها وبدا عليها الضعف الشديد، لكنها تحاملت على نفسها حتى وصلت إلى النافذة الصغيرة ونظرت من خلالها؛ فوجدت أمامها حقلا ممتدا مدى البصر، وعادت إلى فراشها حائرة تماما: ماذا تفعل هنا في ضيعة لم ترها في حياتها من قبل؟ وعادت السيدة "**جاردنر**" تحمل صينية عليها طبق من الشوربة، وعادت السيدة "**رايمر**" تردد أسئلتها:

– ماذا أفعل هنا؟ من أحضرني هنا؟

– لم يحضرك أحد يا عزيزتي، هذا منزلك، إنك على الأقل عشت هنا منذ خمس سنوات، ولكنني لم أعرف من قبل أنك معرضة لمثل هذه النوبات.

– كنت أعيش هنا؟ طيلة خمس سنوات؟

– تماما. ألا تذكرين شيئا على الإطلاق يا "**هانا**"؟

– أنا لم أسكن هنا قط، ولم أرك في حياتي من قبل.

– إنك طبعا لا تذكرين بسبب المرض الذي تعانينه.

– لم أر هذا المنزل من قبل في حياتي.

– بالعكس يا عزيزتي.

وذهبت السيدة "**رايمر**" إلى التسريحة وأحضرت صورة قديمة لأربعة أشخاص: رجل ذو لحية، امرأة بدين هي السيدة "**جاردنر**"، رجل طويل رفيع ذو ابتسامة جذابة، وسيدة في فستان من قماش مطبوع، هي بنفسها. وحدقت السيدة "**رايمر**" إلى الصورة غير مصدقة، ووضعت السيدة "**جاردنر**" الحساء بجانبها وغادرت الغرفة دون أن تقول شيئا.

ودون وعي تناولت السيدة "**رايمر**" الحساء. كان جيدا وساخنا. لكن عقلها كان في دوامة: من المجنونة هي أم السيدة "**جاردنر**"؟ لابد من أن إحداهما مجنونة، لكن هناك الطبيب أيضا. وقالت لنفسها بحزم:

"أنا "**أماليا رايمر**". أنا أعرف جيدا أني "**أماليا رايمر**"، ولن يقنعني أحد أبداً بخلاف ذلك". وانتهت من تناول الحساء وأعادت الصينية إلى مكانها، وجذب انتباهها صحيفة ملقاة جانبا، ونظرت إلى التاريخ 19 تشرين الأول (أكتوبر)، وبدأت تتذكر في أي يوم ذهبت إلى مكتب السيد "**باركر باين**": يوم الخامس عشر أو السادس عشر، إذن مضى عليها ثلاثة أيام وهي مريضة. وقالت بغضب:

– هذا الطبيب اللعين. لكن في الوقت نفسه كانت قد بدأت تهدأ بعض الشيء. كانت قد سمعت عن أناس فقدوا ذاكرتهم لمدد تمتد بضعة أعوام، وكانت تخشى أن يكون قد حدث لها هذا وبدأت تقلب في الصحيفة دون تركيز، حتى وقع نظرها فجأة على خبر في أحد الأعمدة:

السيدة "**ابنر رايمر**" أرملة ملك الصناعة، نقلت أمس إلى مصحة أمراض عقلية، بعد أن مضى عليها يومان وهي تدعي أنها خادمة تدعى "**هانا مورهاوس**".

– المنافق "**باركر باين**" يحاول خدعة ما.. لكن في هذه اللحظة سقطت عيناها على عنوان آخر في الصفحة نفسها:

(ادعاء الدكتور "**كونستانتين**")

كشف أمس الدكتور "**كلاوديوس كونستانتين**" عن بعض النظريات الغريبة في المحاضرة التي ألقاها قبل مغادرته "**لندن**" إلى "**اليابان**"، قال إنه قد أصبح من الممكن إثبات وجود الروح، وذلك عن طريق نقل الروح من جسد إلى جسد آخر، وادعى أنه في أثناء تجاربه التي كان يجربها في بلدان الشرق تمكن من القيام بعملية نقل أرواح مزدوجة لأشخاص منومة مغناطيسيا، وبعد صحوهم من التنويم كانت كل روح قد تقمصت

جسد الآخر تماما، وقال إنه لنجاح مثل هذه التجربة يجب أن يكون الشخصان متشابهين إلى أقصى درجة، وقال أيضا إنه حتى وإن كان الشخصان على درجة كبيرة من التفاوت الاجتماعي يمكن استبدال روحيهما إذا كانت ملامحهما الجثمانية متشابهة.

وألقت السيدة "**رايمر**" بالصحيفة وهي تزمجر:

– هذا الوغد السافل. وبدا لها كل شيء مفهوما تماما، كانت مؤامرة محبوكة لابتزاز أموالها، كانت المدعوة "**هانا مورهاوس**" أداة للسيد "**باين**"، وربما كانت بريئة هي أيضا، إنما الذي دبر هذه المؤامرة كان قطعا "**باين**" وذلك الشيطان "**كونستانتين**" لكنها ستفضحه، ستكشفه أمام الجميع، وستسلط عليه القانون.

غير أنها تذكرت أن أول بادرة لاعتراضها على وضعها الجديد كان أن وضعت في مصحة للمجانين، وضعوها في مصحة ويستحيل الآن عليها الخروج، وإذا أكثرت من أقوالها هذه فسيثبتون عليها حالة الجنون. وسرت رعدة شديدة في جسدها. لا يجب أن تخاطر أكثر من ذلك. وفتح الباب ودخلت السيدة "**جاردنر**":

– ها قد شربت الحساء، سيفيدك كثيرا. وسألتها السيدة "**رايمر**":

– منذ متى وأنا مريضة؟

– منذ حوالي ثلاثة أيام، يوم الأربعاء بالتحديد، حوالي الساعة الرابعة. وازداد الموقف وضوحا للسيدة "**رايمر**"؛ ففي هذه الساعة... الرابعة من يوم الأربعاء أدخلوها مكتب الدكتور "**كونستانتين**". وأردفت السيدة "**جاردنر**":

– سقطت عن كرسيك وأنت تتأوهين وتقولين إنك تريدين أن تنامي، ثم استغرقت في النوم فنقلناك إلى سريرك واستدعينا الدكتور، وهأنت هنا منذ ذلك اليوم.

– أعتقد أنه ليست هناك وسيلة للتحقق من شخصيتي إلا عن طريق وجهي؟

– غريب جداً. وهل هناك شيء أكثر إثباتا للشخصية من وجه الإنسان؟ على أية حال هناك شامة على مرفقك الأيمن، يمكنك التحقق من ذلك بنفسك.

وكانت السيدة "**رايمر**" تعلم جيدا أنه ليست هناك أية علامات على ذراعها فشمرت عن كمها، وعلى مرفقها تماما وجدت العلامة... كبيرة مثل حبة الفريز (الفراولة)، وانفجرت السيدة "**رايمر**" تبكي. بعد أربعة أيام نهضت السيدة "**رايمر**" من فراشها، كانت قد استعرضت عدة احتمالات لما يمكنها أن تفعله لكنها غضت النظر عنها جميعا.

خطر لها أن تُطلعهم على الأخبار المنشورة في الصحيفة ثم تقص عليهم قصتها بحذافيرها.. لكنها عادت فرجحت أنهم لن يصدقوا روايتها، فكرت في أن تذهب إلى الشرطة. لكنها رجحت أيضا أن الشرطة لن تصدقها.

فكرت في أن تذهب إلي مكتب السيد "**باين**"، وكانت أكثر ارتياحا لهذه الفكرة، عندئذ يمكنها أن تقول لهذا الوغد رأيها فيه، غير أن هناك عقبة كبيرة تعوق تنفيذ هذه الفكرة. فهي الآن في "**كورنوال**" وليس لديها أي نقود تتيح لها الذهاب إلى "**لندن**"، ولم يكن في حقيبتها الرثة أكثر من شلنين ونصف، ويبدو أن هذا هو ما كانت تمتلكه؛ لذلك وبعد مرور الأيام الأربعة، قررت السيدة "**رايمر**" أن تتقبل وضعها الحالي مؤقتا، ستكون "**هانا مورهاوس**" وتقوم بدورها حتى تحصل على نقود كافية للذهاب إلى "**لندن**" وتضع يدها على هذا النصاب.

وكان لقرارها هذا أثر طيب في معنوياتها، وكانت تشعر بأنها تتسلى وهي تقوم بدورها الجديد، وكأن التاريخ يعيد نفسه لأن حياتها الجديدة كانت مشابهة تماما لحياتها وهي فتاة صغيرة.

❖❖❖❖❖

طبعا كان العمل شاقا بعد سنوات الرفاهية التي عاشتها لكنها بعد أسبوع تأقلمت تماما على العمل في المزرعة. وكانت السيدة "**جاردنر**" سيدة طيبة هادئة الطباع، وكان زوجها أيضا دمث الأخلاق، كان بالمزرعة عامل آخر ضخم الجثة يبلغ حوالي الخامسة والأربعين؛ بطيء الكلام. ويبدو الخجل في عينيه الزرقاوين. ومرت الأسابيع ثم حل اليوم الذي استطاعت فيه السيدة "**رايمر**" أن تكمل أجر السفر إلى "**لندن**" لكنها أرجأت ذهابها؛ إذ لديها متسع من الوقت ثم إن هذا الوغد "**باركر باين**" يستطيع في أي وقت أن يجد طبيبا يشهد بأنها مجنونة فيضعونها في مستشفى أمراض عقلية لا تخرج منه باقي حياتها، ثم إن قليلا من التغيير قد يفيدها.

كانت تستيقظ مبكرة وتعمل كثيرا. كان "**جو ولش**" العامل الضخم، مريضا ذلك الشتاء، وتكلفت هي والسيدة "**جاردنر**" بالعناية به. ثم جاء الربيع وتفتح الورد.

وتحسنت صحة "**جو ولش**" فبدأ يساعد "**هانا**" في عملها، وكانت "**هانا**" تصلح له ملابسه. وفي أيام الآحاد يذهبان أحيانا للنزهة في الحقول. كان "**جو**" أرمل، ماتت زوجته منذ أربع سنوات، واعترف لها بأنه بدأ يكثر من الشراب بعد وفاتها. لكنه في هذه الأيام لم يعد يذهب إلى البار كثيرا، واشترى لنفسه بعض الملابس الجديدة.

وبدأت السيدة "**جاردنر**" وزوجها يتضاحكان عليهما. وكانت "**هانا**" تضحك كثيرا على "**جو**" وتسخر من ارتباكه، وكان "**جو**" يبدو سعيدا من سخريتها، ثم حل الصيف، وكان هناك عمل كثير إلى أن انتهى موسم الحصاد.

❖❖❖❖❖

كان اليوم الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) عندما رفعت "**هانا**" رأسها في أثناء العمل ووجدت السيد "**باركر باين**" يطل عليها من فوق سور الحقل؛ فصرخت "**هانا**" أو السيدة "**رايمر**":

– أنت.. أنت..ومضت تكيل له الصاع تلو الصاع حتى أفرغت ما في جعبتها وانقطعت أنفاسها، وطيلة الوقت كان السيد "**باركر باين**" يبتسم:

– أنا أوافقك تماما على ما تقولين.

– أنت كاذب وغشاش، أنت وأطباؤك وهذه المسكينة "**هانا مورهاوس**" التي توجد الآن في مستشفى للمجانين..

– لا. هذا خطأ منك. إن "**هانا مورهاوس**" ليست في مستشفى للمجانين؛ لأنه لايوجد على الإطلاق أحد بهذا الاسم.

– هل تريدني أن أصدق هذا؟ ماذا عن أمر الصورة إذن؟

– مزورة طبعا، شيء من السهل جداً عمله.

– وما نشر في الصحف عنها؟

– نسخة مزورة من الصحيفة أيضا.

– وهذا النصاب دكتور "**كونستانتين**"؟

– شخصية وهمية تقمصها صديق لي يمتاز بموهبة التمثيل.

– أظن أنك ستقول لي أيضا إنني لم أنوَّم مغناطيسيا.

– نعم. كل ما هنالك مجرد مخدر في القهوة حتى ننقلك إلى هنا حيث تستعيدين الرشد.

– إذن فالسيدة "**جاردنر**" كانت على علم بكل شيء؟ وهز السيد "**باين**" رأسه.

– رشوتها دون شك، أو ملأت رأسها بالأكاذيب.

– السيدة "**جاردنر**" تثق بي، لقد أنقذت ابنها يوما من المشنقة.

– وماذا عن أمر العلامة التي على ذراعي؟

– لو رأيتها الآن لوجدت أنها بدأت تضمحل، بضعة أشهر أخرى وتزول تماما.

– وما هو الغرض إذن من كل هذه الترهات؟ تضعونني هنا أعمل خادمة؟ أنا التي أمتلك كل هذه الأموال! طبعا دون حاجة إلى أن أسألك، بدأت تغترف أنت منها كما شئت، وهذا هو الغرض من كل ما حدث.

– صحيح، حصلت منك وأنت تحت تأثير المخدر على توكيل منك يبيح لي التصرف كما شئت في أموالك، لكنني أؤكد لك يا سيدتي العزيزة، أنه بخلاف الألف جنيه التي اتفقنا عليها لم أمس شلنا واحدا من نقودك، بالعكس؛ فبعد أن توليت أنا الأمور تحسنت أحوالك المالية. وبدا عليها الارتباك:

– إذن... لماذا؟

– دعيني أسألك سؤالا واحدا، أنت امرأة شريفة وأرجو أن تجيبني بأمانة: هل أنت سعيدة؟

– سعيدة؟ هذا سؤال عجيب! تسرق نقود امرأة ثم تسألها إن كانت سعيدة!! أنت فعلا وقح.

– إنك مازلت غاضبة، هذا طبيعي. لنترك أعمالي السيئة الآن. عندما أتيت إلى مكتبي يا سيدتي منذ سنة تقريبا كنت امرأة تعيسة. هل تستطيعين أن تقولي إنك تعيسة الآن؟ إذا كان هذا صحيحا فأنا آسف ولك أن تتخذي ما تشائين من إجراءات ضدي، وسوف أعيد لك أيضا الألف جنيه التي دفعتها لي، والآن: هل أنت امرأة تعيسة يا سيدتي؟ ونظرت إليه السيدة "**رايمر**"، ثم أطرقت برأسها:

– لا. لست تعيسة، لم أشعر بمثل السعادة التي أشعر بها الآن منذ وفاة "**ابنر**". سوف

أتزوج رجلا يعمل هنا... "**جو ولش**"، سوف نعلن ذلك يوم الأحد القادم.

– لكن كل هذا تغير الآن طبعا، كل شيء تغير الآن؟ واحمر وجه السيدة "**رايمر**":

– ماذا تعني، تغير؟ هل تظن أن كل أموال الدنيا تستطيع أن تجعل مني سيدة أرستقراطية؟ أنا لا أريد الأرستقراطية، سيدة لا حول لها ولا قوة. أنا و"**جو**" متفقان تماما سعيدان فيما بيننا، أما أنت أيها الطفيلي "**باركر**"، فاذهب عنا ولا تتدخل فيما لايعنيك. وأخرج السيد "**باين**" ورقة من جيبه وناولها لها:

– والتوكيل؟ هل أمزقه؟ ستتولين أنت الآن إدارة أعمالك، أليس كذلك؟ وبدا على وجه السيدة "**رايمر**" تعبير غريب، ودفعت الورقة في يده:

– خذها، لقد قلت لك أشياء قاسية كثيرة قد تستحق بعضها؛ فأنت رجل ماكر، لكنني أثق بك. أريد سبعمائة جنيه هنا، سيكفي هذا لشراء مزرعة قريبة منا ونحبها كثيرا، أما الباقي فأعطه للمستشفيات.

– أتريدين أن تقولي إنك تريدين أن تهبي كل ثروتك للمستشفيات؟

– تماما. "**جو**" إنسان طيب، لكنه ضعيف، إذا وجد نقودا كثيرة فستحطمه. لقد تمكنت من إقناعه بأن يقلل من الشراب، الآن أعرف تماما ما الذي سأفعله، ولن أدع المال يقف عقبة أمام سعادتي.

– أنت امرأة فذة، امرأة من كل ألف كانت تتصرف مثلك.

– إذن فامرأة من ألف لديها عقل. ورفع لها السيد "**باين**" قبعته محييا، ثم انحنى لها باحترام شديد واستدار ليغادر المزرعة.

– أرجوك. (صاحت خلفه السيدة "**رايمر**"). لا تخبر "**جو**" بأي شيء.

ووقفت تنظر إليه وهو يبتعد والشمس من خلفها تميل للمغيب، كانت تمسك كرنبة كبيرة في يدها ومنجلا في اليد الأخرى وكتفاها عريضتان مشدودتان.. تماما كأي فلاحة عريقة واثقة بنفسها.

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل السابع. منها:

إدوارد جيفريز

الفصل السابع
هل لديك كل ما تريدين؟

– من هذه الناحية يا سيدتي.

وتقدمت المرأة ذات معطف الفراء لكي تتبع الشيال المحمل بالحقائب على طول رصيف محطة "**ليون**". كانت تضع على رأسها قُبَّعة من التريكو البنِّي الغامق؛ تكاد تغطي إحدى عينيها وإحدى أذنيها، لكن الجزء الظاهر من وجهها كان جميلا للغاية تتدلى عليه خصلات من شعرها الأشقر، كان مظهرها يدل على أنها أمريكية، واستدار العديد من الرجال ليرمقوها بنظرات طويلة فاحصة وهي تسير برشاقة بجانب القطار.

ودخلت العربة المكتوب عليها ("**باريس**" – "**استانبول**")، وقادها مفتش عربة النوم إلى الكبينة رقم 6، وكادت تصطدم وهي تسير في الممر بشخص طويل القامة كان خارجا من الكبينة المجاورة، ولاحظت بنظرة عاجلة أن في وجهه ونظرات عينيه ملامح الطيبة وسلامة الطوية.

وفتح المفتش نافذة الكبينة بينما أخذ الشيال يرتب الحقائب على الأرفف، واستوت المرأة جالسة ووضعت على المقعد بجانبها حقيبة صغيرة قرمزية فضلا على حقيبة يدها. وكان الجو داخل الكبينة حارا، ومع ذلك لم يخطر لها أن تخلع معطفها وأخذت تحملق بشرود خارج النافذة.

وكان بائعو الصحف والمياه الغازية والشوكولاتة والفاكهة يتجولون على الرصيف يعرضون بضائعهم، لكنها لاهية عنهم، وكان الحزن والقلق باديين بوضوح على محياها.

– هل تسمحين سيدتي بجواز السفر؟ ولم تنتبه له المرأة فأعاد المفتش عليها السؤال فانتبهت مذعورة وفتحت حقيبة يدها وناولته الجواز.

– سوف أقوم بكل الإجراءات بنفسي لأني سأكون برفقتك حتى "**استانبول**".

وأخرجت السيدة "**إلسي جيفريز**" ورقة من ذات الخمسين فرنكا دستها في يده. وتقبلها المفتش ببساطة وسألها:

– متى تحبين أن يعدوا لك الفراش؟ وهل ترغبين في تناول العشاء؟ وانسحب بعد أن

أجابت عن أسئلته.

وسمعت خادم المطعم وهو يمر بسرعة في الممر معلنا بدء تقديم العشاء، فنهضت من مقعدها وخلعت المعطف الثمين، والتقطت حقيبة يدها وحقيبة مجوهراتها وخرجت من كبينتها، وما إن سارت خطوتين حتى رأت خادم المطعم عائدا وهو يهرول في الممر مرددا نداءه، ولكي تتفادى الاصطدام به تراجعت خطوة إلى الكبينة المجاورة وكانت خالية، وبعد أن عبر الخادم الممر وهمت بالخروج منها وقع بصرها على الحقيبة الموجودة داخلها وعلى البطاقة الملصقة بها.

كانت تبدو مكتظة وبالية قليلا عند الجوانب، ومكتوب على البطاقة: ("**باركر باين**" مسافر إلى "**استانبول**")، وبدت على وجهها الدهشة ووقفت مترددة قليلا في الممر، ثم عادت مسرعة إلى كبينتها والتقطت صحيفة التايمز التي كانت موضوعة على المنضدة بجانب عدد من المجلات والصحف الأخرى. جرت بعينيها بسرعة على عمود الإعلانات بالصفحة الأولى حتى وجدت ضالتها، ثم عاودت سيرها إلى عربة المطعم وهي مقطبة الجبين.

وقادها النادل إلى مائدة صغيرة لشخصين، ووجدت أن الشخص الجالس أمامها هو الشخص نفسه الذي كادت أن تصطدم به وهي ذاهبة إلى كبينتها، الشخص نفسه صاحب الحقيبة البالية.

وأخذت السيدة "جيفريز" تختلس النظر إليه، كانت تبدو عليه الطيبة واللطف، وكان هناك أيضا شيء صعب تعليله وهو أنه يوحي لمن يراه بالثقة التامة. وكانت تصرفاته مهذبة ومتحفظة شان الإنجليز، ولم يوجه لها أية كلمة حتى بدآ يتناولان الفاكهة.

– إن التدفئة في القطار مرتفعة الدرجة جداً.

– جداً. ليتهم يفتحون النوافذ قليلا! وابتسم الرجل:

– مستحيل؛ فإن كل من في القطار سيحتج بشدة. وابتسمت هي الأخرى ثم انقطع الكلام بينهما، وتناولا القهوة ودفع كل منهما حسابه، ثم استجمعت "**إلسي**" شجاعتها:

– أرجو المعذرة، لقد قرأت الاسم المكتوب على حقيبتك... السيد "**باركر باين**"، هل هو أنت؟ وسكتت مترددة حتى تدخل هو:

– أعتقد أنني هو. وردد لها الإعلان التي كانت "**إلسي**" قد قرأته مرات عديدة في التايمز.

– يا لها من مصادفة غريبة!

– ليست غريبة على الإطلاق، ربما ترينها أنت غريبة، أما أنا فلا أجدها كذلك. وابتسم لها ومال ناحيتها قليلا عبر المائدة وهو يقول:

– إذن فأنت تعيسة؟ قالت "**إلسي**":

– أنا... لكنها توقفت فجأة عن الكلام.

– ما كنت لتقولي إنها مصادفة غريبة إلا إذا كنت تحسين التعاسة. وصمتت "**إلسي**" لحظة، كانت قد بدأت تشعر براحة بمجرد جلوسها مع السيد "**باركر باين**".

– في الحقيقة أنا تعيسة، على الأقل أنا قلقة. وهز رأسه مشفقا وأردفت:

– لقد حدث شيء عجيب جداً، ولا أعرف إطلاقا كيف أتصرف حياله.

– لماذا لا تقصّين عليَّ كل شيء؟

وفكرت "**إلسي**" برهة. كثيرا ما سخرت هي و "**إدوارد**" من هذا الإعلان اليومي، لم تكن لتدري على الإطلاق أنه سيأتي اليوم الذي تلجأ فيه إلى صاحبه، وفكرت للحظة في أن السيد "**باين**" هذا قد يكون نصابا لكنها سرعان ما طرحت الفكرة جانبا بسبب مظهره الذي يوحي بالثقة، وقررت أن تصارحه بأنها كانت على استعداد لأن تفعل أي شيء لتتخلص من القلق الذي يعتريها... قالت:

– سوف أقول لك كل شيء: أنا ذاهبة إلى " **استانبول**" لألحق بزوجي. إنه يقوم بأعمال كثيرة في الشرق وقد اضطر إلى السفر هناك هذا العام منذ أسبوعين، و سيقوم بإعداد كل شيء لألحق به، وكنت متشوقة جداً إلى الذهاب إلى هناك؛ فأنا لم أسافر إلى الخارج قط، لقد مكثنا ستة أشهر فقط في "**إنجلترا**".

– هل أنتما أمريكيان؟

– نعم.

– وربما متزوجان حديثا..

– منذ سنة ونصف.

– وزواجكما سعيد؟

– جداً. "**إدوارد**" ملاك، ربما لم يكن من الطراز المرح المنطلق؛ فإنه يميل إلى التحفظ لكنه ملاك. ونظر إليها السيد "**باركر باين**" قليلا ثم قال:

– استمري.

– بعد أن سافر "**إدوارد**" بأسبوع كنت جالسة إلى مكتبه أكتب له خطابا، ولاحظت أن النشافة جديدة ونظيفة فيما عدا بضعة سطور، وبدافع من مجرد حب الاستطلاع الذي اكتسبته من قراءتي للروايات البوليسية – قربت النشافة من المرآة لأقرأ ما عليها، في الحقيقة لم أقصد شيئا يا سيد "**باين**"، مجرد لعبة، لم أفكر إطلاقا في التجسس على "**إدوارد**"، أعني أنه هادئ جداً ومنطوٍ ولا يمكن أن يتشكك فيه أحد.

– نعم نعم، إنني أفهم موقفك تماما.

– كان من السهل جداً قراءة الكلام، كان هناك أولا كلمة (زوجة) ثم (قطار "**سمبلون**" السريع) ثم الكلمات (وربما كان أنسب وقت هو قبل وصول القطار إلى "**فينيسيا**"). ثم توقفت عن الكلام.

– شيء غريب فعلا. وهل كانت الكتابة بخط زوجك؟

– قطعا. لقد أرهقت ذهني بالتفكير ولكنني لا أدري ما هي الظروف التي تدفعه إلى كتابة مثل هذا الكلام. ورد السيد "**باركر باين**":

– (ربما كان أنسب وقت هو قبل وصول القطار إلى "**فينيسيا**") كلام غريب حقًا. وكانت السيدة "**جيفريز**" منحنية نحوه وهي تنظر إليه مترقبة يحدوها الأمل:

– ماذا أستطيع أن أفعل؟

– أعتقد أنه علينا أن ننتظر حتى قبل الوصول إلى "**فينيسيا**" حسب الجدول، مفروض أن يصل القطار إلى "**فينيسيا**" في الثانية وسبع وعشرين دقيقة من بعد ظهر غد. ونظر كل منهما إلى الآخر برهة.

– اتركي كل شيء لي.

بلغت الساعة الثانية وخمس دقائق، وكان القطار متأخرا عن موعده بإحدى عشرة دقيقة، وكان السيد "**باركر باين**" جالسا مع السيدة "**جيفريز**" في كبينتها. كانت الرحلة مريحة وخالية تماما من أي شيء يبعث على الكدر، لكن الوقت كان قد حان لحدوث شيء ما، هذا إن كان هناك شيء سيحدث على الإطلاق. كان القلق قد بدأ

يعتري السيدة "**جيفريز**" وراحت تنظر في عيني السيد "**باين**" متلهفة.

– لا تخشي شيئا طالما وجدتِني هنا. أنت في أمان تام؛ فكوني هادئة. وفجأة انطلقت صرخة من الممر:

– انظروا انظروا، القطار شبت فيه النيران. وقفز الاثنان إلى الممر، ووجدا سيدة بدينًا تشير بفزع إلى مؤخرة الممر. ومن الكبينة الأولى كان ينبعث دخان كثيف، وجريا نحو النار يتبعهما آخرون. كانت الكبينة نفسها غارقة في الدخان من الداخل، وجاء مفتش القطار على عجل.

– لا تنزعجوا لا تنزعجوا. هذه الكبينة خالية وسنسيطر على النيران فورا. وكان الجميع يتكلمون في الوقت نفسه، وكان القطار في هذه اللحظة يعبر الكوبري الذي يربط بين الجزيرة المقامة عليها "**فينيسيا**" وشبه الجزيرة الإيطالية.

وفجأة استدار السيد "**باركر باين**"، وشق طريقه خلال الزحام وعاد مسرعا إلى كبينة "**إلسي**"، وهناك وجد السيدة البدين جالسة وهي تلتقط أنفاسها بجانب النافذة المفتوحة.

– بعد إذنك يا سيدتي، أعتقد أن هذه ليست كبينتك.

– أعرف ذلك. أعرف ذلك، آسفة جداً لكن الصدمة.. وأنا قلبي ضعيف. وكانت تتنفس بصعوبة شديدة. وقال لها السيد "**باين**" وهو مازال واقفا عند باب الكبينة:

– لا تخشي شيئا؛ فالحريق بسيط جداً.

– حقيقة؟ لقد طمأنتني، يستحسن إذن أن أعود إلى كبينتي.

– أعتقد أنه يستحسن أن تبقى بعض الوقت.

– سيدي، إن هذه لإهانه.

– سيدتي، سوف تبقين هنا بعض الوقت. وجلست المرأة وهي تنظر إليه شذرا. وبعد لحظة عادت "**إلسي**" إلى الكبينة. وقالت وهي تلهث:

– الظاهر أنها كانت قنبلة دخان لا أكثر، حركة سخيفة جداً، المفتش في غاية الغضب ويستجوب كل شخص. وتوقفت عن الكلام عندما لاحظت السيدة الجالسة في كبينتها. وسالها السيد "**باركر باين**":

– سيدتي. ماذا تحملين في الحقيبة القرمزية الصغيرة؟

– مجوهراتي.

– يستحسن أن تلقي نظرة إليها وتتأكدي أنه لا ينقصها شيء. واندفعت السيدة البدين تصب الكلام بالفرنسية وهي في سورة الغضب بينما التقطت "**إلسي**" حقيبة المجوهرات.

– يا إلهي! إنها مفتوحة. وبعد برهة أردفت:

– لقد ضاعت المجوهرات، كل شيء... السوار الألماس، العقد الذي أهدانيه أبي، الخاتم الزمردي، العقيق أيضا، والدبابيس الألماسية. من حسن الحظ أنني أرتدي اللآلئ. ماذا سنفعل يا سيد "**باين**"؟

– أرجوك أن تستدعي المفتش، ولن أسمح لهذه السيدة بمغادرة الكبينة حتى يحضر. وبدأت السيدة البدين تكيل له السباب بينما القطار يهدئ من سيره ويقف على محطة "**فينيسيا**". وتوالت الأحداث بسرعة في نصف الساعة التالية، تحدث السيد "**باركر باين**" إلى عدد من الرسميين بعدد من اللغات، ووافقت السيدة المشتبه فيها على تفتيشها لكن لم يعثر على أي شيء من المجوهرات معها. وبينما القطار يقطع المرحلة من "**فينيسيا**" إلى "**تريستا**"، جلس السيد "**باركر باين**" و"**إلسي**" يتناقشان في الموضوع.

– متى كانت آخر مرة رأيت فيها المجوهرات؟

– هذا الصباح، كنت أغير القرط الذي ارتديته أمس.

– هل كانت كل المجوهرات موجودة؟

– طبعا لم أتفحصها جيدا لكن قطعا كان كل شيء هناك، ربما كان أحد الخواتيم غير موجود بينها ولكن لم ألاحظ ذلك.

– وعندما كان الخادم يرتب الكبينة؟

– كانت معي في عربة الطعام، دائما أحتفظ بها معي، لم أتركها قط إلا عندما جرينا نحو الحريق المزعوم.

– إذن. فهذه السيدة البريئة المظلومة السيدة "**سوبايسكا**" قطعا هي اللصة السارقة لكن ماذا فعلت بالمجوهرات، إنها لم تمكث أكثر من دقيقة ونصف، وهذا يكفي بالكاد لأن تفتح الحقيبة بمفتاح مصطنع وتأخذ محتوياتها، لكن ماذا فعلت بالمحتويات بعد ذلك؟

– يجوز أن تكون سلمتها لشخص آخر.

– غير ممكن، لقد كنت في طريقي نحو الكبينة وكان بإمكاني أن أرى أي شخص يخرج منها.

– ربما كانت قد ألقت المسروقات من النافذة لشخص ما.

– فكرة مدهشة لكن تصادف في أثناء الحادث أن القطار كان يمر فوق البحر، كنا وقتها نعبر الكوبري.

– إذن ربما خبأت المسروقات في العربة.

– دعينا نبحث عنها. وبدأت "**إلسي**" بحماسها الأمريكي بينما اشترك معها السيد "**باركر باين**" لكن دون اهتمام واضح، ولما سألته "**إلسي**" عن السر في ذلك أجابها:

– أعتقد أنه يجب أن أرسل برقية مهمة من "**تريستا**". وتقبلت "**إلسي**" عذره ببرود. كان واضحا أن السيد "**باركر باين**" فقد الكثير من تقديرها، فقال لها السيد "**باين**" بتواضع:

– الظاهر أنك متضايقة مني يا سيدتي. فردت ببرود:

– الواقع أنك لم تكن ناجحا تماما في المهمة.

– الحقيقة يا سيدتي العزيزة أني لست شرطيا سريا، السرقات والجرائم لا شأن لي بهما، أنا أتعامل فقط مع القلوب.

– كنت تعيسة قليلا عندما ركبت هذا القطار لكن لا شيء يمكن مقارنته بحالي الآن. يمكنني أن أنفجر باكية إلى ما لا نهاية. مجوهراتي الجميلة... الخاتم الزمردي... هدية خطبتي من "**إدوارد**".

– لكنك قطعًا مؤمنة عليها ضد السرقة.

– مؤمنة عليها؟ لا أدري، أعتقد ذلك لكن المهم هو القيمة المعنوية يا سيد "**باين**". وبدأ القطار يهدئ من سرعته، ونظر السيد "**باركر باين**" من النافذة.

– "**تريستا**"، عليَّ أن أرسل البرقية.

❖❖❖❖❖

وأضاء وجه "**إلسي**" فرحا وهي ترى زوجها مسرعا نحوها على رصيف "**استانبول**"، ولبرهة نسيت مجوهراتها المفقودة بل نسيت الكلمات الغريبة التي قرأتها على النشافة

بمكتب زوجها، وجرت نحوه فرحة للقائه بعد غياب أسبوعين. وبينما هما يغادران المحطة شعرت "**إلسي**" بمن يربت برفق كتفها، واستدارت فوجدت السيد "**باركر باين**" يبتسم لها:

- سيدتي، أرجوك أن تحضري لمقابلتي في فندق "**توكاتليان**" بعد نصف ساعة. أعتقد أن عندي أخبارا حسنة لك. ونظرت "**إلسي**" إلى "**إدوارد**" بارتباك ثم قدمت السيد "**باركر باين**" له.

- أعتقد أن زوجتك أبرقت إليك بخصوص ضياع مجوهراتها، ولقد كنت أحاول أن أفعل شيئا لأساعدها على العثور على المجوهرات، وأعتقد أنه بعد نصف ساعة سوف يكون لديَّ ما أخبركما به. ونظرت "**إلسي**" إلى زوجها متسائلة وأجابها فورا:

- أعتقد أنه من المستحسن أن تذهبي يا عزيزتي. هل قلت فندق "**توكاتليان**" يا سيد "**باين**"؟ حسنا! سأعمل على أن تكون زوجتي هناك في الموعد. وبعد نصف ساعة تماما كانت السيدة تدخل الصالون الملحق بغرفة السيد "**باين**".

- كنت تعتقدين أني خيبت ظنك يا سيدتي، حسنا! أنا لا أدَّعي السحر لكنني أفعل كل ما بوسعي أن أفعله. انظري بداخل هذه العلبة. ووضع على المائدة أمامها علبة من الورق المقوى وفتحتها "**إلسي**". خواتيم، دبابيس، أساور، كل شيء وجدته هناك.

- سيد "**باين**"، هذا مدهش! مدهش! وابتسم السيد "**باين**" بتواضع:

- أنا سعيد لأني مازلت عند حسن ظنك يا سيدتي العزيزة.

- لا تجعلني أشعر بأنني كنت وضيعة معك؛ فمنذ أن كنا في "**تريستا**" وتصرفاتي معك كانت في غاية السخافة، ثم الآن... لكن كيف حصلت عليها؟ وهز السيد "**باين**" رأسه:

- إنها قصة طويلة يا عزيزتي، ربما قلتها لك في أحد الأيام، وربما عرفتها قريبا.

- ولماذا ليس الآن؟

- هناك أسباب. ورحلت "**إلسي**" دون أن تعرف القصة وتناول السيد "**باركر باين**" قبعته وعصاه ونزل إلى الشارع وهو يبتسم لنفسه، وسار حتى وصل إلى قهوة صغيرة تطل على "القرن الذهبي"، ونظر عبر المضيق إلى مآذن "**استانبول**" وهي تميل إلى الاحمرار في شمس الأصيل، كان منظرها أخاذا، وطلب قدحين من القهوة التركية. وكان قد بدأ

يحتسي قهوته عندما جاء شخص وجلس على الكرسي المقابل له، كان الرجل "**إدوارد جيفريز**".

– لقد طلبت هذه القهوة لك. لكن "**إدوارد**" دفع القهوة جانبا. ومال نحو السيد "**باين**":

– كيف عرفت؟ واستمر السيد "**باركر باين**" في تناول قهوته.

– هل أخبرتك زوجتك عن الكلمات التي اكتشفتها على النشافة في مكتبك؟ ستقوله لك حتما، ربما نسيت الأمر مؤقتا. وذكر له ما اكتشفته "**إلسي**" على مكتبه:

– وهذا يتفق تماما مع الحادث الغريب الذي وقع قبل وصولنا إلى "**فينيسيا**". لسبب أو لآخر أردت أن تُدبر سرقة مجوهرات زوجتك لكن هذه الجملة عن أنسب وقت قبل الوصول إلى "**فينيسيا**" لم يبدُ لها أي معنى. لماذا لم تترك لعميلتك تحديد الوقت والمكان المناسب؟

وفجأة بدا كل شيء واضحا: كانت مجوهرات زوجتك قد سرقت واستبدلت بها مجوهرات زائفة قبل أن تغادر أنت "**لندن**". لكن هذا في حد ذاته لم يرضك؛ فأنت بطبيعتك رجل ذو ضمير. كنت تخشى أن يُتهم أحد من الخدم بالسرقة إذن يجب أن تحدث السرقة فعلا بطريقة تبعد الشبهة عن أي شخص تعرفه أنت أو لك علاقة به.

وزودت عميلتك بمفتاح مطابق لمفتاح صندوق المجوهرات، وكذلك بقنبلة دخان، وفي الوقت المناسب تطلق عميلتك القنبلة، وتثير الهلع بين المسافرين ثم تدخل مسرعة إلى كبينة زوجتك وتلقي بالمجوهرات الزائفة في البحر، طبعا سوف تكون موضع شبهة، ويجري تفتيشها لكن لن يثبت عليها شيء لأنه لا توجد أية مجوهرات في حوزتها.

وهذا يوضح تماما اختيارك للمكان؛ فلو أن المجوهرات ألقيت إلى جانب القضبان في أي مكان لأمكن العثور عليها عاجلا أو آجلا، كان الأمر المهم أن تلقي هذه المجوهرات في البحر، وفي الوقت نفسه تكون أنت قد اتخذت التدبيرات لبيع المجوهرات الحقيقية هنا، كل ما عليك أن تفعله هو أن تنتظر حتى تتم السرقة فعلا، لكن برقيتي وصلت إليك في الميعاد المناسب، ونفذت أنت تعليماتي ووضعت المجوهرات في صندوق وتركته باسمي في "**توكاتليان**"، ولم يكن لديك مجال للخيار لأنك تعرف أنني ما كنت لأتردد في

إبلاغ الشرطة، وكذلك أطعت تعليماتي وحضرت لمقابلتي هنا. ونظر "**إدوارد جيفريز**" إلى "**باركر باين**" باستعطاف، كان شابا حسن الهيئة، طويل القامة، وأشقر الشعر.

– ما عساي أستطيع أن أقول لك لتفهم موقفي؟ إنك قطعا تحسبني مجرد لص عادي.

– أبدا بالعكس. أنا أظن أنك إنسان شريف تماما. فأنا معتاد أن أميز طبائع الناس، والآن يستحسن أن تقول لي قصتك.

– يمكنني أن أقولها لك في كلمة واحدة: ابتزاز الأموال. لقد عرفت في زوجتي امرأة نقية بريئة لا تعرف شيئا عن شرور الناس، ولها أفكار سامية، وإذا عرفت شيئا ارتكبته قبل زواجي فسوف تهجرني، لا أدري لكن هذا خارج عن الموضوع.

– وماذا فعلت يا صديقي العزيز؟ علاقة مع امرأة أخرى؟ وأحنى "**إدوارد**" رأسه مؤمنا.

– قبل أم بعد الزواج؟

– قبل الزواج طبعا.

– إذن ماذا حدث؟

– لا شيء، لا شيء على الإطلاق، وهذا هو أصل البلاء. كانت امرأة جذابة جدًّا، السيدة "**روسيتر**"، زوجها رجل شرس، هددها ذات ليلة بمسدس، فهربت منه ولجأت إلى غرفتي وهي ترتعد خوفا وطلبت أن تبقى معي حتى الصباح؛ ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ وحدق الرجلان أحدهما إلى الآخر، ثم تنهد السيد "**باركر باين**":

– ضحكوا عليك باللعبة القديمة نفسها، دائما تنجح مع الشبان ذوي الشهامة. وأظن عندما علموا بزواجك بدؤوا يضيقون عليك الخناق؟

– نعم. وصلني خطاب: إذا لم أرسل مبلغا معينا من المال فسوف يقولون كل شيء لوالد زوجتي، كيف أني خدعت زوجة هذا الرجل، وسيرفع هو قضية لطلب الطلاق من زوجته التي تخونه معي؛ فأصبحت في حيرة لا أدري ماذا أفعل.

– دفعت ما طلبوه، ومن وقت لآخر كانوا يطلبون منك مبالغ أخرى.

– نعم. وكان آخر طلب في وقت لم أستطع أن أضع يدي على أي مبلغ من المال، ففكرت في أن أرتكب هذه الفعلة لكن ماذا أستطيع أن أفعل الآن؟ ماذا أستطيع أن أفعل يا سيد "**باين**"؟ قال السيد "**باركر باين**" بحزم:

– سوف أقوم بإرشادك، سوف أتولى أنا أمر الذين يهددونك، أما عن زوجتك فستعود

إليها حالا وتقص عليها كل شيء، أو على الأقل كل شيء فيما عدا كيف خدعتك هذه الشرذمة.

– لكن...

– يا عزيزي السيد "**جيفريز**"، أنت لا تفهم النساء، إذا كان على المرأة أن تختار بين (دون جوان) ومغفل فحتما ستختار الـ(دون جوان) إن زوجتك امرأة شريفة رقيقة مهذبة، وكل الإثارة التي ستجدها في حياتها أنها جعلت منك إنسانا مستقيما، أنا جاد فيما أقوله لك، زوجتك مدلهة في حبك الآن لكنها قد لا تستمر على حبها لك إذا أظهرت نفسك أمامها دائما بهذا الشكل الممل؛ فاذهب إليها واعترف لها بكل شيء... كل ما تستطيع أن تفكر فيه. ثم قل لها إنه منذ اللحظة التي قابلتها فيها تخليت عن كل حياتك السابقة لدرجة أنك سرقت لكي تحول بينها وبين سماع مثل هذه الأشياء، وسوف تغفر لك كل شيء وتصفح عنك تماما.

– لكن إذا لم يكن هناك ما يستدعي الغفران والصفح ؟

– من حقائق الحياة الزوجية الأساسية الكذب على الزوجات، سوف يسعدها ذلك؛ فاذهب واظفر بغفرانها يا بُنَي، وستعيش سعيدا مدى الحياة، سوف تفتح زوجتك عينيها جيدا بعد اليوم كلما مرت أمامك امرأة جميلة لكن لا أعتقد أن هذا سيضيرك.

– أنا لا أبغي أية امرأة في الدنيا سوى "**إلسي**".

– عظيم جداًّ يا بُنَي لكن لا أعتقد أن عليك أن تقول لها ذلك. وعاد "**إدوارد جيفريز**" يسأل:

– هل تعتقد حقيقة... ونهض السيد "**باين**" وهو يقول بحزم:

– أنا أعرف تماما ما أقول.

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل الثامن

الآنسة "**نيتا برايس**" سائحة وعمتها العجوز

هنسلي: موظف بمصلحة الأشغال

سميثهريست: موظف بمصلحة الأشغال وصديق لـ"**هنسلي**"

بولي: شاب إيطالي

ويليامسون: أحد الطيارين الثلاثة

أورورك: أحد الطيارين الثلاثة

بنتميان: سيدةل أرمنية

"**لوفنتوس**" : طبيب المجموعة وأحد الطيارين الثلاثة وقائد السرب

الفصل الثامن
باب بغداد

كان السيد "**باين**" واقفا في أحد شوارع "**دمشق**" أمام فندق الـ"**أورينتال**" حيث وقفت الحافلة الفاخرة التي كانت ستقله هو وأحد عشر شخصا آخرين عبر الصحراء إلى "**بغداد**" في صباح اليوم التالي.

شتان ما بين الأمس والآن. كان باب "**بغداد**" في وقت من الأوقات باب الموت، كان يؤدي إلى حوالي ستمائة كيلومتر من الصحراء لا تعبرها إلا القوافل، شهور من السفر المضني، أما اليوم فهناك الحافلة الفاخرة تقطعها في ست وثلاثين ساعة.

– بماذا تتمتم يا سيد "**باين**"؟

إنه صوت الآنسة "**نيتا برايس**" أصغر وأجمل سائحة، لكنها كانت برفقة عَمَّة عجوز صارمة تشك في كل رجل، وعلى أية حال كانت "**نيتا**" تتمتع بالرحلة إلى أقصى حد على الرغم من اعتراضات عَمَّتها، وكان يقف بجوارها ثلاثة رجال يرتدون زي سلاح الطيران وكان أحدهم معجبا بـ"**نيتا**" فتدخل قائلا:

– مازالت هناك مغامرات مثيرة في رحلة كهذه. وهتفت "**نيتا**" :

– دعونا نذهب لزيارة بعض الأماكن. وأخرجت عَمَّتها الدليل السياحي وبدأت تتصفحه. وابتعدت "**نيتا**" خطوتين وهمست لـ"**أورورك**" :

– قطعا ستؤثر عمتي مشاهدة الأماكن الأثرية، أما أنا فأريد التجول في السوق. وأخذها "**أورورك**" جانبا:

– تعال معي. سوف نبدأ جولتنا من شارع... وابتعدا عن المجموعة. واستدار السيد

"**باركر باين**" نحو رجل هادئ يقف بجانبه يدعى "**هنسلي**"، وكان يعمل في مصلحة الأشغال في "**بغداد**"، وقال:

– إن "**دمشق**" تبدو جذابة من أول زيارة. واكتفى "**هنسلي**" بهز رأسه، وانضم إليهما شاب كان مرافقهم في الرحلة، وكان وجهه الصبوح يبدو عليه بعض القلق وكان زميلا لـ"**هنسلي**" في المصلحة نفسها.

– هل فقدت شيئا يا "**سميثهريست**"؟

– لا شيء.. فقط أتجول قليلا. وسار الاثنان معا وأخذ السيد "**باركر باين**" يتصفح جريدة محلية تصدر بالفرنسية، ولم تثر الصحيفة اهتمامه؛ فقد كانت الأخبار المحلية لاتعنيه في شيء، ولم يكن هناك أية أخبار خارجية مهمة، ثم وقع على بعض الأخبار القصيرة مصدرها "**لندن**"، كان أولها عن تطورات اقتصادية، والثاني عن المالي "**صمويل لونج**" الذي ابتز ما يقرب من ثلاثة ملايين جنيه، ويبدو أنه في طريقه إلى "**أمريكا اللاتينية**". وغمغم السيد "**باين**":

– لا بأس إطلاقا لرجل لم يتعدَّ الثلاثين بكثير.

– ماذا تقول؟ والتفت السيد "**باين**" ليجد أن محدثه إيطالي كان معه على الباخرة نفسها من "**برنديزي**" إلى "**بيروت**"، وأعاد السيد "**باين**" ما قاله وشرح له الأمر فهز السيد "**بولي**" رأسه عدة مرات:

– إنه لمجرم عريق حتى نحن في "**إيطاليا**" عانينا منه الكثير، كان يتمتع بسمعة طيبة وفهمت أيضا أنه من عائلة كبيرة.

– كان خريج "**ايتون**" و"**اكسفورد**". كان صوت السيد "**باين**" حذرا. سأل الإيطالي:

– وهل سيتمكنون من القبض عليه؟

– هذا يتوقف على مكانه، ربما لايزال في "**إنجلترا**" أو في أي مكان آخر. وضحك الإيطالي قائلا:

– هنا معنا مثلا؟

– ولم لا؟ ربما كنت أنا هذا الشخص. وكان صوت السيد "**باين**" جادا، وبدا الانزعاج للوهلة الأولى على وجه الإيطالي، ثم عاد وابتسم:

– هذا جميل.. جميل جدًا.. لكن أنت... وبدأت عيناه تتفحصان السيد "**باين**".

– ليس لك أن تحكم بالمظاهر؛ فإن الإنسان يستطيع أن يغير من مظهره بمنتهى السهولة فيبدو الشخص أكبر من سنه الحقيقي بكثير، ثم من الممكن أيضا صبغ الشعر وتغيير لون البشرة، وحتى تغيير الجنسية أصبح سهلا. وانسحب "**بولي**" وهو ينظر إليه بتشكك. لم يكن ليستطيع أن يحكم إطلاقا متى يكون الإنجليز جادين ومتى يهزلون.

وفي المساء ذهب السيد "**باركر باين**" إلى السينما، ثم أمضى سهرته بعدها في مرقص وأحس هناك بضيق شديد؛ إذ كانت تخيم على المكان سحابة من الملل، سواء من جانب الراقصات أو الزبائن، وفجأة لمح "**سميثهريست**". كان الشاب جالسا بمفرده وكان وجهه محتقنا، وظن السيد "**باين**" أنه أسرف في الشراب فذهب إلى مائدته وجلس قبالته، وبادره "**سميثهريست**" بضيق بالغ:

– تصرفات هؤلاء الفتيات مثيرة للاشمئزاز، لقد قدمت لها كثيرا من المشروبات، ومع ذلك تركتني وخرجت ضاحكة مع شخص آخر. شيء حقير ومقزز. واقترح عليه السيد "**باين**" أن يشربا قهوة.

– لا لا. لقد طلبت عرق. مشروب رائع، هل جربته؟ وكان السيد "**باركر باين**" يعرف العرق وخصائصه، فحاول أن يثني الشاب عن الاسترسال في الشراب لكن "**سميثهريست**" هز رأسه بعناد:

– أنا في ورطة، يجب أن أرفه عن نفسي. لا أعرف ماذا كنت تفعل لو أنك في مكاني. أنا لا أحب أن أتخلى عن صديق لكن ما عساي أستطيع أن أفعل؟ وفجأة أخذ يحدق إلى وجه السيد "**باركر باين**" وكأنما يراه لأول مرة، وكان العرق قد فك عقدة لسانه:

– عملي هو اكتساب ثقة الناس.

– ماذا؟ أنت أيضا؟ وأخرج السيد "**باركر باين**" قصاصة صحيفة من محفظته. ووضعها على المائدة أمام "**سميثهريست**": (هل أنت تعيس؟ إذن استشر السيد "**باركر باين**")، وأخذ "**سميثهريست**" يحدق إلى الورقة فترة حتى استطاع أن يركز فيها عينيه ويقرأها:

– يا للعنة! هل تريد أن تقول إن الناس تأتي إليك وتقص عليك مشاكلها؟

– إنهم يثقون بي.

– قطعا كلهم من النساء الغبيات.

– كثير منهم نساء، هذا صحيح لكن هناك أيضا رجال. وماذا عنك يا صديقي؟ منذ لحظة كنت تبحث عن نصيحة.

– لا شأن لك أنت إطلاقا بهذا، هذا شأني أنا فقط. أين هذا العرق اللعين؟ وهز السيد "**باين**" رأسه ويئس من محاولة استمالة "**سميثهريست**".

وبدأت الرحلة إلى "**بغداد**" في الساعة السابعة صباحا، كانوا اثني عشر شخصا في الحافلة: السيد "**باركر باين**"، السيد "**بولي**"، الآنسة "**برايس**" وعمتها، الطيارين الثلاثة، "**سميثهريست**" و"**هنسلي**"، سيدة أرمنية تدعى "**بنتميان**" وابنها.

وبدأت الرحلة عادية، وسرعان ما ابتعدوا عن "**دمشق**". كانت السماء ملبدة بالغيوم والسائق الشاب يتطلع إليها بين حين وآخر بقلق ثم قال لـ"**هنسلي**":

– المطر يسقط بغزارة على الجانب الآخر من الرطبة، أرجو ألا يسبب هذا لنا المتاعب.

وفي الظهر توقفت الحافلة، وتناول المسافرون غداءهم بينما جلس السائقان يعدان الشاي ويوزعانه في أكواب من الورق المقوًى، ثم بدأت الرحلة ثانية عبر الصحراء التي لا تنتهي، وعند الغروب وصلوا إلى قلعة الرطبة ودخلت الحافلة من البوابة الضخمة إلى فناء القلعة الداخلي وصاحت "**نيتا**" بحماس:

– يا له من مكان رائع! وبعد أن اغتسلوا صممت "**نيتا**" على التنزه قليلا. وعرض "**أورورك**" والسيد "**باين**" أن يصحباها ورجاهم المدير ألا يبتعدوا كثيرا عن القلعة لأن من الصعب الاهتداء إلى الطريق بعد حلول الظلام. ولم تكن النزهة مثيرة لأن الصحراء تمتد على وتيرة واحدة لا تتغير. ومرة انحنى السيد "**باين**" والتقط شيئا من فوق الرمال. وسألته "**نيتا**" باهتمام:

– ما هذا؟

– حجر صوان يا آنسة "**برايس**"، من العصر الحجري.

– هل كانوا يستخدمونه في القتل؟

– لا، كانوا يستخدمونه في أغراض سلمية عديدة لكنني أعتقد أنه يمكن استخدامه في القتل أيضا. إن الرغبة في القتل هي الأساس، أما الأداة فلا أهمية لها على الإطلاق؛ فيمكن دائما العثور على وسيلة للقتل إذا ما توافرت الرغبة. وكان الظلام قد بدأ يحل

بالأرض فعادوا مسرعين إلى القلعة.

وبعد العشاء جلسوا يدخنون في انتظار تحرك الحافلة في منتصف الليل، وكان السائق قلقا:

– الطريق مليء بالحفر وأخشى أن تغرز الحافلة في إحداها. وكانت "**نيتا**" متضايقة لأنها لا تستطيع الوصول إلى إحدى حقائبها. فقدكانت تريد الحصول على خُفَّيها وقال لها "**سميثهريست**":

– يستحسن أن تعدي حذاء المطر؛ فمن الجائز جداً أن نغرق في بحر من الطين.

– يا إلهي! وليس عندي حتى جورب آخر!

– لا تقلقي. لن تغادري أنت الحافلة، سيكون علينا نحن الرجال أن ننزل وندفعها. وأطفئت أنوار الحافلة الداخلية وبدأت تتحرك. كان الطريق رديئا للغاية وكثير المطبات، وكان السيد "**باركر باين**" يجلس في أحد المقاعد الأمامية. وبجواره عبر الممر كانت تجلس السيدة الأرمنية متلفحة بغطاء. وخلفها كان يجلس ابنها، وخلف السيد "**باين**" جلست الآنسة "**برايس**" وعمتها، وفي المقاعد الخلفية جلس "**بولي**" و"**سميثهريست**" و"**هنسلي**" والطيارون.

وسارت الحافلة في الليل. ولم يستطع السيد "**باين**" أن ينام؛ فقد كان المقعد غير مريح لكن الآخرين جميعا كانوا نياما، وبدأ النعاس يراوده قليلا لكن المطبات كادت تخلعه من كرسيه. وزمجر النائمون في احتجاج، ثم ما لبثوا أن عاودهم النعاس مرة أخرى لكنهم استيقظوا جميعا عندما غرزت الحافلة وتوقفت تماما، ونزل بعض الرجال ومعهم السيد "**باين**". كان المطر قد توقف والقمر ساطعا. وكان السائقان منهمكين يضعان الأحجار خلف عجلات الحافلة ويحاولان تثبيت الرافعة ورفع العجل المنغرز في الطين، وكان الرجال يساعدونهما قدر الإمكان، وكانت السيدات يرقبن المشهد من نافذة الحافلة. وبدأ الرجال يحاولون رفع الحافلة ثم صاح "**أورورك**" فجأة:

– أين الفتى الأرمني؟ لماذا لا يحضر لمساعدتنا؟ وأضاف "**بولي**":

– و"**سميثهريست**" مازال داخل الحافلة هو الآخر.

– إنه مازال نائما. انظروا إليه! وفعلا كان "**سميثهريست**" لا يزال في مقعده، رأسه

منحنٍ إلى الأمام وكل جسده مرتخٍ. وصاح "**أوروك**" في غضب:

- سأذهب لأوقظه. وقفز داخل الحافلة لكنه عاد مسرعا بعد لحظة وهو ينهج:

- أظن أنه مريض. هل هناك طبيب؟ وكان قائد السرب "**لوفنتوس**" طبيبا في سلاح الطيران، وهو رجل دمث الطبع ذو شعر أبيض، وسأل "**أوروك**":

- ماذا به؟

- لا أدري. ودخل الطبيب الحافلة يتبعه "**أوروك**" والسيد "**باركر باين**"، وانحنى فوق الجسد المرتخي أمامه، وكانت نظرة واحدة ولمسة من يده كافيتين.

- لقد مات. وانهالت الأسئلة:

- مات؟ كيف؟ شيء فظيع! وقال "**لوفنتوس**":

- ربما اصطدمت رأسه بالسقف في المطب.

- لا يمكن أن يقتله هذا، ربما هناك سبب آخر.

- لن أستطيع أن أحكم إلا إذا فحصته جيدا. وتحدث السيد "**باركر باين**" قليلا مع السائق، كان شابا قويا يافعا فحمل النساء الثلاث كل على حدة عبر حفرة الطين إلى الأرض الجافة، وأخليت الحافلة للطبيب ليجري الفحص اللازم بينما عاود الرجال محاولاتهم لتخليص الحافلة.

كانت الشمس قد بدأت في الشروق وبدأ الطين يجف لكن الحافلة بقيت مغروزة، وكسرت ثلاث روافع في محاولات فاشلة لتخليصها، وبدأ السائقان يعدان الإفطار، وكان "**لوفنتوس**" قد استقر على رأي:

- لا توجد به أية علامات أو جروح. كما قلت، في الأغلب أن رأسه اصطدم بسقف الحافلة في أثناء المطب.

- هل أنت متأكد إذن أن الوفاة طبيعية؟ وكان في صوته نبرة جعلت الطبيب ينظر إليه مسرعا:

- هناك احتمال واحد؛ فمن المحتمل أن شخصا ضربه على مؤخرة رأسه بشيء ثقيل يشبه مثلا كيسا من الرمل. فقال "**ويليامسون**" أحد الطيارين:

- هذا غير محتمل؛ فلا يمكن أن يكون أحد قد فعل ذلك دون أن نراه. فقال الطبيب:

- ربما كنا نياما وقتها.

– لكن الذي فعلها كان لا يستطيع التأكد أننا نائمون. وقال "**بولي**":

– الطريقة الوحيدة هي أن يكون الفاعل جالسا خلفه تماما، وفي اللحظة المناسبة ينفذ العملية حتى دون أن يغادر كرسيه. وسأل الطبيب:

– ومن كان يجلس خلفه؟ فأجاب "**أورورك**":

– "**هنسلي**" يا سيدي القائد، وهذا طبعا محال لأنه كان أعز أصدقائه. وصمت الجميع برهة ثم ارتفع صوت السيد "**باركر باين**" بهدوء وثقة:

– أعتقد أن الطيار "**ويليامسون**" لديه ما يقوله لنا.

– أنا يا سيدي؟ أنا.. فصاح به "**أورورك**":

– تكلم فورا.

– لا شيء البتة. لا شيء يستحق.

– قلت لك: تكلم فورا.

– سمعت جزءا من حديث ونحن في قلعة الرطبة.. في الفناء، كنت قد عدت إلى الحافلة لأحضر سجائري، وبينما أنا أبحث عنها إذ سمعت شخصين يتحدثان بجوار الحافلة، كان أحدهم "**سميثهريست**" وكان يقول... وسكت عن الكلام حتى صاح به "**أورورك**" ثانية:

– أكمل حديثك، هيا.

– كان يقول شيئا عن عدم التخلي عن صديق، كان يبدو في حالة شديدة من الكرب، ثم قال: سأسكت حتى نصل "**بغداد**"، لكنني لن أسكت دقيقة واحدة بعد هذا، يجب أن تهرب بسرعة؟

– ومن كان الآخر؟

– لا أعرف يا سيدي. أقسم لك؛ فقد كان الظلام حالكا ولم يتكلم الآخر أكثر من كلمة أو كلمتين ولم أستطع أن أتبينه جيدا.

– من منكم يعرف "**سميثهريست**" جيدا؟ فقال "**أورورك**" ببطء شديد:

– لا أظن كلمة (صديق) تنطبق على أي شخص سوى "**هنسلي**"؛ فأنا أعرف "**سميثهريست**" بعض الشيء، "**ويليامسون**" جديد هنا، وكذلك قائد السرب

"**لوفنتوس**" لا أظن أن أحدا منهم قد قابله قبل الرحلة.

– وأنت يا "**بولي**"؟

– أنا لم أقابله حتى ركبنا السيارة من "**بيروت**" في طريقنا إلى "**دمشق**".

– والأرمني؟ فقال "**أورورك**" بحزم:

– لا يمكن أن يكون هذا الفتى صديقا. عندئذ قال السيد "**باركر باين**":

– أعتقد أن عندي دليلا صغيرا. وقص عليهم حديثه مع "**سميثهريست**" في المرقص في "**دمشق**" ثم سأل السيد "**باين**":

– هل لدى أحد منكم شيء يضيفه؟ وسعل الطبيب ثم قال:

– ربما لم يكن لهذا أية علاقة بالموضوع لكنني سمعت "**سميثهريست**" يقول لـ"**هنسلي**" مرة: ربما كانت الأخبار تتسرب من القسم التابع لك.

– ومتى كان ذلك؟

– قبل أن نغادر "**دمشق**" صباح أمس، كنت أظن أنهما يناقشان مشاكل العمل، لم أتخيل قط... وتوقف عن الكلام وسأله السيد "**باين**":

– لقد ذكرت شيئا عن كيس من الرمل؛ فهل يمكن لشخص أن يضع شيئا مشابها؟ فرد الطبيب:

– الرمال موجودة حولنا في كل مكان. وأضاف "**أورورك**":

– إذا وضعت رملا في فردة جورب... ثم صمت مترددا وتذكر الجميع أن "**هنسلي**" كان قد ذكر في معرض الحديث الليلة السابقة أنه دائما يحتفظ بجورب احتياطي في جيبه، فقال السيد "**باركر باين**" بهدوء:

– أظن أن السيد "**هنسلي**" كان يحتفظ بجوربه الاحتياطي في جيب معطفه، والمعطف موجود الآن في الحافلة. وانتقلت أعينهم إلى "**هنسلي**" الذي كان وقتها يتمشى بعيدا عنهم جيئة وذهابا منذ أن اكتشفت الجثة، واحترم الجميع شعوره وتركوه بمفرده. وسأل السيد "**باركر باين**" "**لوفنتوس**":

– هل يمكنك أن تحضر الجورب يا سيدي؟ وتردد الطبيب:

– أنا لا أحب هذا، يبدو لي أننا نسيء التصرف.

– أرجوك أن تحضره؛ فإن الظروف غير عادية. نحن في ظرف حرج ويجب أن نعرف

الحقيقة وقد يفيد الجورب في الاقتراب من معرفة ما حدث. وذهب "**لوفنتوس**" إلى الحافلة، وانتحى السيد "**باين**" بالسيد "**بولي**" جانبا:

– أظن أنك كنت تجلس في المقعد المجاور لـ"**سميثهريست**" عبر الممر.

– هذا صحيح.

– هل رأيت أحداً يغادر مكانه في الحافلة؟

– فقط السيدة "**برايس**" العجوز، ذهبت مرة إلى دورة المياه في مؤخرة الحافلة.

– هل تعثرت في مشيتها؟

– كانت تهتز قليلا بسبب حركة الحافلة.

– وكانت هي الشخص الوحيد الذي رأيته يغادر مكانه؟

– نعم. وسأل "**بولي**" باندهاش:

– من أنت؟ إنك تتصرف كما لو كنت قائدا لكنك لست برجل عسكري.

– لقد رأيت في الحياة تجارب كثيرة.

– سافرت كثيرا دون شك.

– أبداً، أمضيت طيلة حياتي جالسا في مكتب. وعاد "**لوفنتوس**" بالجورب وأخذه منه السيد "**باين**" وفحصه جيدا، كان بداخل فردة قليل من الرمل الندي عالقا بالجوانب.

– الآن عرفت كل شيء. وانتقلت عيناه إلى "**هنسلي**" الذي يسير وحيدا على بعد ثم أردف:

– أريد أن أفحص الجثة بنفسي إن سمحت. وذهب مع الطبيب الذي رفع الغطاء عن الجثة الممددة:

– لا يوجد شيء يستحق الرؤية لكن نظر السيد "**باين**" كان مركزا في ربطة عنق الرجل الميت.

– إذن فـ"**سميثهريست**" كان من خريجي "**إيتون**". وبدا الاندهاش على وجه "**لوفنتوس**". وعاد السيد "**باركر باين**" يدهشه من جديد:

– ماذا تعرف عن "**ويليامسون**"؟

– لا شيء البتة، قابلته في "**بيروت**" فقط، كنت واصلا لتوى من "**مصر**"، لماذا؟

– لأنه الوحيد الذي قدم دليلا يمكن أن يشنق بسببه رجل، يجب أن نكون على حذر.

وكان السيد "**باين**" مازال مهتما بربطة عنق الرجل الميت وبياقة قميصه، وفك ياقة القميص وصاح بدهشة:

- هل رأيت هذا؟ في مؤخرة الياقة كانت توجد بقعة دم صغيرة. وبدأ يفحص مؤخرة العنق بدقة.

- هذا الرجل لم يقتل بضربة على الرأس، هذا الرجل طعن في مؤخرة الجمجمة، يمكنك أن ترى الجرح الصغير.

- يا إلهي! كيف لم ألحظ هذا؟

- كنت مقتنعا برأيي من قبل... ضربة على الرأس، وهذا الجرح من السهل عدم ملاحظته، طعنة سريعة بآلة صغيرة حادة بعدها يكون الموت سريعا، لن تتمكن الضحية حتى من الصراخ.

- هل تقصد خنجرا مدببا؟ هل تظن أن "**بولي**"...

- طبعا الإيطاليون والخناجر دائما يرتبطان في مخيلة الإنسان... ما هذا؟

- أرى سيارة قادمة. كانت هناك سيارة قد بدأت تظهر عند الأفق، وانضم إليهما "**أورورك**" وهو يقول:

- تستطيع النساء متابعة الرحلة في هذه السيارة. فسأله السيد "**باين**":

- وماذا من أمر القاتل؟

- تقصد "**هنسلي**"؟

- لا.. لا أقصد "**هنسلي**"؛ فأنا واثق بأن "**هنسلي**" بريء.

- وكيف توصلت إلى ذلك؟

- بسبب الرمل الموجود في جوربه. وحملق "**أورورك**" إلى وجهه.

- أعرف أن هذا يبدو غير معقول لكنها الحقيقة. لم يمت "**سميثهريست**" من ضربة على رأسه، لقد مات مطعونا. ثم سكت لحظة وأضاف:

- من طريقة كلام "**سميثهريست**" معي في المرقص واهتمامه بموضوع الثقة بشخص ما. لقد قلت مرة مازحا إن السيد "**صمويل لونج**" الهارب قد يكون معنا في الرحلة، لنفرض أن هذا حقيقة.

- لكن هذا مستحيل.

– أبداً، ما الذي تعرفه عن الناس أكثر مما هو مدون في جوازات سفرهم وما يرددونه عن أنفسهم؟ هل أنا حقيقة "**باركر باين**"؟ هل "**بولي**" في الحقيقة إيطالي... وماذا عن العمة "**برايس**" التي تبدو وكأنها تحتاج إلى حلاقة ذقنها؟

– لكنه... أقصد "**سميثهريست**"... لم يكن يعرف "**لونج**".

– "**سميثهريست**" كان من خريجي "**إيتون**"، وكذلك "**لونج**"، لابد أنه تعرف إليه، لكنه لم يقل شيئا ولم يدر ماذا يفعل. كان شابا مستقيما وكان الأمر يقلقه وقرر آخر الأمر ألا يقول شيئا حتى يصل إلى "**بغداد**" لكنه قال إنه سيتكلم حالما يصل إلى هناك. فسأله "**أورورك**" وهو مازال مدهوشا:

– هل تظن أن أحدنا هو "**لونج**"؟ ثم أضاف:

– لابد من أنه الإيطالي ... أو الأرمني..

– أسهل بكثير أن يظل إنجليزيا من أن يتظاهر بأنه أجنبي ويحصل على جواز سفر أجنبي.

– العمة "**برايس**"؟ فرد عليه السيد "**باركر باين**" بحزم:

– لا. هذا هو رجلنا. ووضع يده على كتف الرجل المجاور له وضغطت أصابعه في جسمه بشدة.

– قائد السرب "**لوفنتوس**" أو السيد "**صمويل لونج**"، سمه كما شئت. فتهته "**أورورك**":

– هذا مستحيل. فـ"**لوفنتوس**" في الخدمة منذ سنوات!

– لكنك لم تقابله في حياتك من قبل، كان غريبا عليكم كلكم، طبعا هو ليس "**لوفنتوس**" الحقيقي. وتكلم الرجل أخيرا:

– منتهى الذكاء منك لكن بالله خبرني كيف عرفت؟

– قرارك الغريب أن "**سميثهريست**" قتل على أثر اصطدام رأسه بسقف العربة كانت فكرة أوعزها إليك "**أورورك**" عندما كنا نتكلم في "**دمشق**" ليلة رحيلنا، ظننتها فكرة بسيطة، كنت الطبيب الوحيد بيننا واعتقدت أننا سنصدق أي شيء تقوله كان من السهل أن تحصل على آلة مناسبة ثم تنحني عليه لكي تكلمه، وفي أثناء حديثك تدفع بالسلاح في عنقه ثم تستمر في حديثك دقيقة أخرى والعربة مظلمة، من كان سيشك

فيك؟

ثم تكتشف الجثة وتصدر حكمك أنت لكن الأمر لا يمر بالسهولة التي كنت تتخيلها؛ فتتكاثر الشكوك. وتلجأ أنت إلى خطة دفاعية أخرى، يعيد "**ويليامسون**" الكلام الذي سمعه يدور بين القتيل و"**هنسلي**" وتضيف أنت إليه دليلا آخر عن حديث تدعي أنك سمعته ثم أقوم أنا باختبار صغير. فأذكر شيئا عن الرمل والجورب وأطلب منك أن تحضر جورب "**هنسلي**" لكي نعرف الحقيقة لكن لم تكن الحقيقة التي ظننتها أنت؛ لأنني كنت قد فحصت جورب "**هنسلي**" من قبل وكان خاليا من الرمل تماما، أنت الذي وضعت الرمل فيه. وأشعل "**صمويل لونج**" سيجارة:

– ليس علي إلا أن أعترف بالهزيمة، لقد تخلى عني الحظ، لقد بدؤوا يضيقون عليَّ الخناق منذ وصولي إلى "**مصر**"، قابلت "**لوفنتوس**"، كان ذاهبا في مهمة إلى "**بغداد**" ولم يكن يعرف أحدا هناك، كانت فرصة رائعة كلفتني عشرين ألف جنيه، مبلغ تافه بالنسبة إليَّ لكن الحظ اللعين يدفع "**سميثهريست**" في طريقي. شخص غبي كل الغباء، كان شديد الإعجاب بي في "**إيتون**"، كان يظنني بطلا من الأبطال، لم تعجبه فكرة الوشاية بي. حاولت معه كثيرا وأخيرا وافق على أن ينتظر حتى نصل إلى "**بغداد**"، ماذا كنت أستطيع أن أفعل في "**بغداد**"؟ لا شيء.. لكنني أستطيع أن أؤكد لكم أنني لست قاتلا بطبيعتي. وفجأة تقلص وجهه وبدأ يتمايل في وقفته. ثم انكفأ على وجهه وانحنى "**أورورك**" فوقه، قال السيد "**باين**":

– ربما كان حامض (البروسيت) في سيجارته. لقد خسر المقامر آخر ورقة معه.

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل التاسع

إستر كار: سيدة إنجليزية. ابنة وزير إنجليزي. تسكن في "شيراز"

شلاجل: الطيار الألماني

موريل كنج: الوصيفة

الفصل التاسع
منزل في شيراز

كانت الساعة السادسة صباحا عندما غادر السيد "**باركر باين**" "**بغداد**" قاصدا "**إيران**" . كانت الطائرة صغيرة ومقاعدها ضيقة، وكان بالطائرة مسافران آخران: رجل ضخم قرر السيد "**باين**" أنه كثير الكلام محب للثرثرة. وامرأة نحيلة تبدو عليها أمارات العزم والتصميم. قال السيد "**باين**" في نفسه: على الأقل لا يبدو عليهما أنهما قد يحتاجان إلى مشورتي. وفعلا لم يكونا محتاجين إليها. كانت المرأة من طائفة المبشرين الأمريكيين ممتلئة نشاطا وسعادة، أما الرجل فكان يعمل في إحدى شركات البترول، وكان الجميع قد تعارفوا قبل إقلاع الطائرة. قال لها السيد "**باين**" :

– أما أنا فمجرد سائح في طريقي إلى "**طهران**" ثم "**أصفهان**" و"**شيراز**" . ونظر السيد "**باين**" من النافذة إلى الأرض المنبسطة تحته، كانت صحراء جرداء. وهبطت الطائرة في "**كيرمانشاه**" لفحص جوازات السفر والقيام بالإجراءات الجمركية المألوفة. وفتحت حقيبة السيد "**باين**"، وكانت تحتوي على علبة صغيرة من الورق المقوى أخذوا يفحصونها بعناية، ولما كان السيد "**باين**" لا يعرف الفارسية فإنه وجد صعوبة كبيرة في الشرح والتوضيح.

وجاء إليهم الطيار وكان شابا ألمانيا أشقر الشعر، فسأله السيد "**باين**" إذا كان في وسعه أن يساعده، وطلب إليه أن يشرح لرجال الجمارك أن العلبة تحتوي على بودرة ضد البق، ولما لم يفهم الطيار تماما أعاد عليه السيد "**باين**" الشرح بالألمانية، وترجم الطيار كلماته لموظفي الجمرك الذين ابتسموا لما يسمعونه.

وأقلعت الطائرة مرة أخرى، وفي "**حمدان**" حاول السيد "**باين**" أن يميز صخرة "**باهيستون**" حيث وقف "**داريوس**" يشرح عظمة إمبراطوريته وغزواته بثلاث لغات مختلفة: البابلية والمديانية والفارسية. ووصلت الطائرة إلى "**طهران**" في الواحدة، وكانت هناك إجراءات شرطية أخرى، ووقف الطيار الألماني بجانب السيد "**باين**" وهو يجيب عن سلسلة طويلة من الأسئلة لم يفهم معظمها، وبعد الاستجواب سأل الطيار:

– ماذا قلت لهم يا ترى؟

– إن اسم والدك "**سائح**"، وإن عملك "**تشارلي**". اسم والدتك "**بغداد**" وإنك قادم من "**هاريت**".

– هل للأمر أهمية؟

– إطلاقا؛ فكل ما يريدونه هو إجابة عن أسئلتهم. ولم تعجب "**طهران**" السيد "**باركر باين**"، وقد صارح بهذا الرأي السيد "**شلاجل**" الطيار عندما قابله مصادفة في الليلة التالية وهو عائد إلى الفندق، ودعاه السيد "**باين**" إلى العشاء معه فلبى الطيار دعوته، وجلسا يتناولان العشاء وبعد برهة سأل الطيار السيد "**باين**":

– إذن فأنت ذاهب إلى "**شيراز**".

– نعم، بالطائرة ومن هناك إلى "**أصفهان**" وبعدها أعود إلى "**طهران**" بالسيارة. هل ستقود الطائرة أنت غدا إلى "**شيراز**"؟

– لا؛ سأعود إلى "**بغداد**".

– هل أنت هنا منذ مدة طويلة؟

– ثلاث سنوات، منذ أن بدأ هذا الخط الجوي في العمل وإلى الآن لم تصادفنا حادثة واحدة. وأمسك خشب المائدة بيده! وجلسا يحتسيان القهوة ويدخنان وبدأ الطيار يستعيد ذكرياته.

– وفي أول رحلة لي ركبت معي سيدتان إنجليزيتان: إحداهما ابنة وزير عندكم... الليدي "**إستر كار**"، وكانت فاتنة ولكنها مجنونة بعض الشيء.

– مجنونة؟

– تماما. وهي تسكن الآن منزلا شعبيا في "**شيراز**" وترتدي الملابس الشرقية، وترفض بتاتا مقابلة أي أوربي، هل هذا يليق بسيدة عريقة بهذا الشكل؟

– هناك حالات كثيرة مشابهة، الليدي "**هيسترستانهوب**" مثلا... لكن الطيار قاطعه:

– لكن هذه المرأة مجنونة، عيناها تماما كعيني قائد الغواصة التي كنت أعمل عليها في أثناء الحرب، إنه الآن في مستشفى للأمراض العقلية. وتذكر السيد "**باين**" لورد "**مايكل ديفر**" والد الليدي "**إستر كار**"، كان يعمل معه عندما كان وزيرا للداخلية، وكان قد رأى والدتها مرة واحدة، وهي سيدة أيرلندية فائقة الجمال. لكن كانت هناك لوثة من

الجنون في عائلة "**كار**" تظهر بين حين وآخر. أو بين جيل وآخر.

– وماذا عن السيدة الأخرى؟

– ماتت. كانت هناك نبرة غريبة في صوته جعلت السيد "**باين**" يتنبه أكثر.

– أن لي قلبا عاطفيا حساسا، وكانت بالنسبة إليَّ أجمل امرأة في الدنيا، أنت تعرف كيف تحل هذه الكوارث فجاة، كانت زهرة يانعة، ذهبت لزيارة أسرتها مرة في منزلهم في "**شيراز**"، وكانت صغيرتي خائفة من شيء ما. وعند عودتي في المرة التالية من "**بغداد**" علمت أنها ماتت.. ماتت. وصمت لحظة ثم أضاف مستغرقا في خواطره:

– ربما قتلتها الأخرى، كانت مجنونة. وطلب السيد "**باين**" كأسين من مشروب خفيف. بعد ظهر اليوم التالي كان السيد "**باركر باين**" يلقي أول نظرة إلى "**شيراز**"، وبدت كالزمردة وسط الصحراء القاحلة.

وأعجبت "**شيراز**" السيد "**باين**"على عكس "**طهران**"، حتى بساطة الفندق أو ضيق الشوارع، كانا يثيران إعجابه ولا يبعثان فيه أي شعور بالمضايقة، في ذلك الوقت كانوا يحتفلون بعيد "النيروز" الذي كان قد بدأ في الليلة السابقة والذي يستمر خمسة عشر يوما يحتفل في خلالها الإيرانيون بالسنة الجديدة، وتجول السيد "**باين**" في الأسواق الخالية، كانت كل "**شيراز**" تحتفل بالعيد.

وذات يوم مضى يتجول خارج المدينة، زار مقبرة الشاعر "**حافظ**" وفي أثناء عودته استلفت نظره منزل شرقي مشيد بالقيشاني الأزرق والأصفر والوردي، تحيط به حديقة جميلة بها أشجار البرتقال والورد... كان يبدو وكانه بيت من بيوت الأحلام، وفي المساء كان يتناول العشاء مع القنصل البريطاني فسأله عن هذا البيت.

– منزل عجيب، أليس كذلك؟ بناه حاكم "**لورستان**" السابق الذي كانت وظيفته تدر عليه دخلا كبيرا. والآن تسكنه امرأة إنجليزية، لابد من أنك سمعت عنها، إنها الليدي "**إستر كار**"، امرأة مطبقة الجنون مستشرقة تماما وتكره أن تتعرف إلى أي شخص أو تعرف أي شيء طالما كان إنجليزيا.

– هل هي صغيرة السن؟

– صغيرة جدًّا على هذا الجنون، في حوالي الثلاثين من عمرها.

– كانت معها سيدة إنجليزية أخرى، أليس كذلك؟ ماتت على ما أعتقد.

– صحيح، منذ حوالي ثلاث سنوات، في اليوم التالي الذي توليت فيه منصبي هنا، كان القنصل السابق "**بارهام**" قد مات فجأة. وسأله السيد "**باين**" فجأة:

– كيف ماتت؟

– سقطت من الشرفة في الطابق الأول، كانت وصيفة أو رفيقة الليدي "**إستر**"، لا أذكر تماما، على أية حال كانت تحمل صينية الإفطار ورجعت خطوة إلى الوراء وسقطت، أمر محزن تماما، لم نستطع إسعافها؛ فقد تحطم رأسها على الصخر.

– وماذا كانت تدعى؟

– "**كنج**" على ما أعتقد أو "**ويلز**"، لا، "**ويلز**" هي المرسلة لكنها كانت فتاة جميلة.

– وهل اضطربت الليدي "**إستر**" للحادث؟

– نعم...لا لا أدري كانت غريبة الأطوار، لا يمكن فهمها، لها شخصية قوية، كانت تخيفني بطريقتها الآمرة وببريق عينيها. وضحك معتذرا ثم نظر إلى رفيقه باستفسار. كان السيد "**باركر باين**" يحدق إلى الفضاء وفي يده عود ثقاب مشتعل لم يقربه من سيجارته حتى حرق إصبعه، وانتبه على نظرات القنصل وهو يحدجه متسائلا.

– آسف على شرودي هكذا. ثم تحدثا في مواضيع شتى.

وفي المساء وعلى ضوء مصباح الغاز في حجرته – جلس السيد "**باين**" يكتب خطابا وهو متردد كثيرا في طريقة صياغته. وفي النهاية استقر على هذه الصيغة: (يهدي السيد "**باركر باين**" تحياته إلى الليدي "**إستر كار**" ويتشرف بإبلاغها أنه مقيم في فندق "**فارس**" لمدة ثلاثة أيام إذا رغبت الليدي في استشارته) وأرفق بالخطاب نسخة من إعلانه المعروف.

– يكفي هكذا. لقد مر على الأمر ثلاث سنوات الآن. أعتقد أنني سأنجح. ونام هادئا في سريره غير المريح. وفي الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي حمل إليه خادم إيراني الرد: (الليدي "**إستر كار**" يسرها أن تستقبل السيد "**باركر باين**" في التاسعة من مساء اليوم) وابتسم السيد "**باركر باين**".

فتح له باب المنزل الخادم نفسه الذي أحضر له الرد واقتاده خلال حديقة مظلمة، وصعد به السلم الخلفي، ومن هناك اجتازا بابا إلى شرفة مكشوفة بها أريكة عريضة

تستلقي عليها امرأة فاتنة الجمال. كانت الليدي "**إستر**" ترتدي ملابس شرقية، ولعل أحد أسباب تعلقها بهذه الملابس أنها تلائم جمالها تماما، كان ذقنها بارزا يدل على قوة شخصيتها كما وصفها القنصل.

– السيد "**باركر باين**"؟ تفضل بالجلوس. وأشارت بيدها إلى كوم من الوسائد ولاحظ "**باين**" أن في إصبع يدها الأوسط خاتما كبيرا من الزمرد يحمل شارة عائلتها، ورأى أن الخاتم وحده يساوي ثروة، وجلس على حشية وقد شعر بأن الجلوس على الأرض لرجل في مثل حجمه أمر غير مريح على الإطلاق، وجاء الخادم بالقهوة وبدأ السيد "**باين**" يحتسيها بتلذذ.

كانت مضيفته قد اتخذت عادات الشرق في التمهل وعدم العجلة؛ فلم تبدأ بالحديث فورا، وإنما شربت هي الأخرى قهوتها في بطء، وأخيرا بدأت تتكلم:

– إذن فأنت تساعد الناس التعساء أو على الأقل هذا ما يدعيه إعلانك.

– نعم.

– لماذا أرسلته إليَّ؟ هل من عادتك أن تحاول القيام ببعض العمل في أثناء رحلاتك؟

كانت هناك نبرة من التحدي في صوتها لكن السيد "**باين**" آثر أن يتجاهلها.

– أبدا. أنا أقرر إذا سافرت أن أظفر بعطلة كاملة من عملي.

– لماذا إذن أرسلت إليَّ الإعلان؟

– لأن عندي من الأسباب ما يجعلني أوقن بأنك تعيسة. وصمتت لمدة دقيقة، وبدأ هو يتساءل كيف تكون ردة فعلها إلى أن ضحكت هي قائلة:

– أعتقد أنك تظن أن من يعتزل العالم ويعيش كما أعيش أنا منفصلة تماما عن بني جنسي وعن بلدي – لابد أن يفعل ذلك لأنه تعيس بسبب الحزن أو خيبة الأمل، هل تظن أنني آثرت المنفى لأحد هذه الأسباب؟ لكن كيف تستطيع أنت أن تفهم غير هذا؟ هناك في "**إنجلترا**" كنت كالسمكة التي خرجت من البحر، أما هنا فأعيش شخصيتي تماما؛ فأنا شرقية بطبعي أحب هذه العزلة، قد لا تفهم أنت هذا، ربما تظن أنني . . . وترددت لحظة ثم قالت: مجنونة.

– إنك لست مجنونة. كان صوته يدل على الوثوق والتأكد، ونظرت إليه باستغراب.

– لكن الجميع يقولون إنني مجنونة، المغفلين! العالم مليء بكل المتناقضات، على أية

حال أنا سعيدة جداً.

– ومع ذلك طلبت مني المجيء.

– أعترف بأنني كنت متشوقة إلى مقابلتك، أنا لا أريد أبدا الرجوع إلى هناك – إلى "**إنجلترا**" – لكن من حين لآخر أحب أن أعرف ماذا يجري هناك...

– في العالم الذي هجرته؟ وأومأت برأسها، وبدأ السيد "**باركر باين**" يتكلم بصوته الهادئ والرزين، تكلم عن "**لندن**" وفضائح المجتمع هناك، مشاهير الرجال والنساء، المطاعم والنوادي الليلية الجديدة، سباق الخيل، ورحلات الصيد في الريف، حدثها عن تطور الموضة وبيوت الأزياء الحديثة، عن المسارح والسينما والأفلام الجديدة، عن الضواحي التي بنيت حول "**لندن**"، عن الحدائق، عن الزهور، عن ازدحام قطار الأنفاق والحوافل وعن كل شيء مهم وتافه يحدث في "**لندن**".

كان كلامه ممتعا، مرتبا ويدل على إلمام شامل بكل شيء، كانت الليدي "**إستر**" قد أحنت رأسها، وتخلى عنها مظهر الكبرياء، كانت الدموع قد بدأت تسيل في هدوء على خديها وحالما أنهى حديثه تخلت عن حذرها وانفجرت باكية، ولم يقل السيد "**باين**" أي شيء. جلس صامتا يرقبها وعلى وجهه علامات الرضا لأن تجربته نجحت وآتت النتيجة المنشودة، وأخيرا رفعت رأسها وقالت بحرارة:

– هل أنت راضٍ الآن؟

– أظن ذلك...

– كيف سأتحمل هذا؟ بالله كيف سأتحمل هذا؟! أن أبقى هنا إلى الأبد في هذا المكان لأني لا أرى مخلوقا على الإطلاق! وحبست صرخة كادت تفلت منها في آخر لحظة، ثم أضافت:

– ماذا؟ لماذا لا تصارحني بالملحوظة المعتادة؟ إذا كنت أريد العودة إلى هذا الحد فلماذا لا أعود؟ هز السيد "**باركر باين**" رأسه:

– لا، لا أظن أن الأمر بمثل هذه السهولة بالنسبة إليك. ولأول مرة بدا الخوف في عينيها:

– هل تعرف لماذا لا أستطيع العودة؟

– أظن ذلك.

– أنت مخطئ، لن يمكنك أبدا أن تخمن السبب الذي يمنعني من العودة.

– أنا لا أخمن، أنا أراقب ثم أصل إلى نتيجة. وهزت هي رأسها:

– أنت لا تعرف شيئا على الإطلاق.

– يظهر أنه يجب أن أقنعك أنني أعرف، عند حضورك إلى هنا يا ليدي "**إستر**" استخدمت طائرات الخطوط الجديدة بين "**بغداد**" وهنا.

– نعم.

– وكان الطيار شابا ألمانيا. السيد "**شلاجل**" الذي جاء بعد ذلك لزيارتكم.

– نعم. وكان في ردها هذه المرة نبرة مختلفة تماما عن ردها الأول، وتغير صوت السيد "**باين**" هو الآخر. فبدا باردا حادا كالصلب:

– كانت معك الصديقة أو المرافقة التي ماتت.

– مرافقتي.

– اسمها؟

– "**موريل كنج**".

– كنت تحبينها؟

– ماذا تعني بـ(أحبها)؟ ثم توقفت قليلا، وأضافت:

– كانت نافعة لي.

– هل حزنت لوفاتها؟

– طبعا لكن الحقيقة يا سيد "**باين**"، هل يجب أن نخوض في هذا؟ كانت غاضبة، ولم تعطه فرصة للكلام بل أردفت فوراً:

– كان جميلا منك جداً أن تحضر لكنني متعبة الآن. قل لي كم هي أتعابك؟ لم يتحرك السيد "**باركر باين**" ولم يبدُ عليه أن كلامها أغضبه واستمر في أسئلته:

– ومنذ موتها لم يحضر السيد "**شلاجل**" لرؤيتك، لنفرض أنه حضر، هل توافقين على مقابلته؟

– قطعا لا.

– ترفضين؟

– بكل تأكيد، لن أسمح للسيد "**شلاجل**" أن يدخل هنا.

– فعلا لا يمكنك أن تقولي غير هذا. وكسر هذا من حدة كبريائها التي كانت تحتمي خلفها وقالت بتردد:

– لا أعرف ماذا تعني بهذا.

– هل كنت تعرفين يا ليدي "**إستر**" أن "**شلاجل**" كان هائما بـ"**موريبل كنج**"؟ وأنه شاب عاطفي ومازال يعيش على ذكراها.

– هل هذا صحيح؟ قالتها فيما يشبه الهمس.

– كيف كانت الآنسة "**كنج**"؟

– ماذا تعني بـ"كيف كانت"؟ أنَّى لي أن أعرف؟

– قطعا نظرت إليها أحيانا!

– آه هكذا، كانت شابة جميلة.

– في مثل سنك تقريبا؟

– تقريبا. وتوقفت برهة ثم قالت:

– ما الذي يجعلك تظن أن "**شلاجل**" كان يحبها؟

– لأنه قال لي هذا بنفسه، وبطريقة قاطعة. وكما قلت لك إنه شاب عاطفي وكان سعيدا بأن يوليني ثقته، كان منزعجا جدًّا بسبب الطريقة التي ماتت بها. وقفزت الليدي "**إستر**" واقفة:

– هل تظن أنني قتلتها؟ ولم يتحرك السيد "**باين**" من مكانه:

– لا ياطفلتي الصغيرة، لا أعتقد على الإطلاق أنك قتلتها؛ ولهذا السبب أعتقد أنه من المستحسن أن تكفي عن هذه التمثيلية وتعودي إلى الوطن.

– ماذا تعني... تمثيلية؟

– الحقيقة ببساطة هو أنك فقدت أعصابك، نعم، فقدت أعصابك تماما؛ كنت تخافين أن تُتَّهمي بقتل سيدتك. وأتت الفتاة بحركة مفاجئة لكن السيد "**باركر**" استمر في حديثه.

– أنت لست الليدي "**إستر كار**"، عرفت هذا قبل أن أحضر هنا، فقط كنت أجري تجربة صغيرة لأمتحنك، كنت ألاحظك جيدا وأنا أتكلم، وكل ردود الفعل عندك كانت

تطابق تماما "**موريل كنج**" لا "**إستر كار**"، دور السينما، والمحلات التجارية، والضواحي والحوافل وقطار الأنفاق، كل هذا أثر فيك. لم يؤثر فيك إطلاقا الكلام عن سباق الخيل أو فضائح المجتمع لأنه لا يعني شيئا بالنسبة إليك. واتخذ صوته نبرة أبوية حانية:

– اجلسي وقصي عليَّ كل شيء، أنا أعرف أنك لم تقتلي الليدي "**إستر كار**" لكنك تخشين أن يتهموك بذلك، احكي لي كيف حدث كل شيء. وأخذت نفسا عميقا وجلست مرة أخرى على الأريكة وبدأت تتكلم باندفاع وبسرعة:

– يجب أن أبدأ من البداية: كنت أخشاها. كانت مجنونة، ليست مطبقة الجنون، لكنها مجنونة إلى حد ما، أحضرتني إلى هنا معها وتبعتها كالبلهاء وأنا في غاية السرور، كنت فعلا غبية تماما، كانت على علاقة بسائق سيارة، كانت مجنونة بالرجال، وانصرف عنها السائق ولم يعد راغبا فيها، وانكشفت المسألة وعرف أصدقاؤها سرها وسخروا منها، فهربت من عائلتها وجاءت لتقيم هنا.

كان الأمر كله عبارة عن هدنة تستعيد فيها كرامتها... الانعزال في الصحراء، كانت ستبقى لفترة ثم تعود إلى الوطن، لكن أطوارها بدأت تزداد غرابة، كان هناك الطيار وتعلقت هي به، حضر هنا ليراني، ويبدو أنه أطلعها على حقيقة شعوره هذا.

والنتيجة أنها انقلبت عليَّ، كانت بشعة ومخيفة، وبدأت تفقد عقلها بالتدريج، تماما كما كان يحدث مع سائر أفراد عائلتها، وذات يوم استجمعت شجاعتي وواجهتها وقلت إنني أقوى منها وأستطيع أن ألقي بها من الشرفة، كانت خائفة، خائفة جداً، وكانت من قبل تظن أنني مجرد حشرة تافهة، وتراجعت إلى الوراء خوفا، تراجعت حتى سقطت من الشرفة. ودفنت "**موريل**" وجهها في يديها وحثها السيد "**باين**" برفق:

– ثم ماذا حدث؟

– خرجت عن وعيي، فكرت في أنهم سيتهمونني بأنني دفعتها من فوق الحاجز، فكرت أن أحداً لن يصدقني. وسيلقى بي في السجن هنا في "**إيران**"... وكنت أعرف أن هناك قنصلا بريطانيا جديدا لم يرنا كلينا لأن القنصل القديم كان قد مات.

كان من السهل أن أتولى أمر الخدم؛ فقد كانوا يعتبروننا امرأتين إنجليزيتين مجنونتين. فأغدقت عليهم النقود وطلبت منهم استدعاء القنصل البريطاني، وعند حضوره قابلته

على أني الليدي "**إستر**"، وكنت قد لبست خاتمها، وكان القنصل رجلا ودودا وتولى هو جميع الترتيبات والإجراءات، ولم يبدُ على أحد أي شك في هذه الخدعة.

لكن بعد أن انتهى كل شيء ندمت على ما حدث، وأدركت أنني كنت مجنونة مثلها؛ حكمت على نفسي دون أن أدري بأن ألزم هذا المكان بقية عمري، لم أدرِ كيف يمكنني مغادرة هذا المكان، وإذا اعترفت الآن سأصبح أكثر تعرضا لتهمة القتل. خبرني بالله عليك يا سيد "**باين**" ماذا أفعل؟ ونهض السيد "**باين**" واقفا:

– ماذا تفعلين؟ ستأتين معي الآن يا طفلتي العزيزة لمقابلة القنصل البريطاني، وهو رجل طيب ودود جدًّا، طبعا ستكون هناك بعض الإجراءات السخيفة، ولا أستطيع أن أعدك أن كل شيء سيتم بسهولة لكنهم لن يشنقوك بتهمة القتل. وبهذه المناسبة لماذا كانت صينية الإفطار موضوعة فوق جثتها؟

– ألقيتها أنا عليها؛ فقد ظننت أن هذا سيثبت أنها الوصيفة، هل كان هذا غباء مني؟

– بالعكس، في غاية البراعة؛ لدرجة أنها النقطة الوحيدة التي جعلتني أفكر إذا كنت فعلا قتلت الليدي "**إستر**" أم لا؛ هذا إلى أن قابلتك، عند رؤيتك تأكدت أنه مهما فعلت في حياتك فإنك لا تستطيعين أن تقتلي أحداً.

– هل تعني أنه ليس لديَّ الجرأة؟

– لا، ليس في طبيعتك. والآن هل نذهب؟ أمامنا عمل كريه يجب أن نؤديه لكن سأقف إلى جانبك إلى أن ننتهي منه، وبعد ذلك نعود إلى الوطن، هل ستأتين؟ وترددت "**موريل كنج**":

– لن يصدقوني، عائلتها وكل الآخرين.

– اتركي هذا لي. أنا أعرف شيئا عن تاريخ هذه العائلة، تعالي يا طفلتي وكفاك خوفا وتذكري أن هناك شابا في "**طهران**" قلبه معذب بسببك، ويحسن أن نرتب الأمور بحيث تسافرين على طائرته إلى "**بغداد**". وابتسمت الفتاة واحمرت وجنتاها خجلا:

– أنا على استعداد. وبينما هما يتجهان نحو الباب استدارت نحوه وسألته:

– قلت إنك عرفت أنني لست الليدي "**إستر كار**" قبل أن تراني، كيف أمكنك ذلك؟

– من دراستي للإحصائيات.

– إحصائيات؟

– نعم. كانت أعين اللورد والليدي "**مايكل ديفر**" ذات لون أزرق، ولما حدثني القنصل أن ابنتهما عيناها سوداوان عرفت أن هناك شيئا ما في الأمر؛ فالأزواج ذوو العيون البنية قد يرزقون بأطفال عيونهم زرقاء لكن العكس غير صحيح، حقيقة علمية فقط لا غير.

– أعتقد أنك مدهش.

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل العاشر

كيليب بلاندل: رجل صناعة

جيم هيرست: سكرتير رجل الصناعة

السير **دونالد مارفل**: عضو البرلمان

الدكتور **كارفر**: عالم آثار

العقيد **دي بوسك**: رجل فرنسي ارستقراطي

الآنسة **كارول بلاندل**: كريمة رجل الصناعة

الفصل العاشر
اللؤلؤة الثمينة

كانت الجماعة قد أمضت يوما شاقا ومضنيا، كانت الرحلة قد بدأت من "**عمان**" في الصباح الباكر في جو حار ووصلت إلى قلعة "**بترا**" الحمراء بعد الغروب.

كانوا سبعة أشخاص: السير "**كيليب بلاندل**"، رجل صناعة أمريكي غني وبدين، سكرتيره الوسيم "**جيم هيرست**"، السير "**دونالد مارفل**"، سياسي إنجليزي عضو في البرلمان ويبدو في هيئة الأعيان، دالكتور "**كارفر**"، عالم الآثار المشهور. العقيد "**دي بوسك**"، رجل فرنسي أرستقراطي، السيد "**باركر باين**"، غير معروف المهنة لكن عليه سمات الوقار الإنجليزي، ثم كانت هناك الآنسة "**كارول بلاندل**"، فتاة مدللة جداً ومرفهة، وفخورة بأن تكون المرأة الوحيدة بين ستة رجال.

وتناول الجميع العشاء في ضجة كبيرة، وتكلموا كثيرا عن الأحوال السياسية في الشرق الأدنى، ولم يشترك في الحديث السيد "**باركر باين**" ولا عالم الآثار ولا "**جيم هيرست**" الذين آثروا الاستماع، ثم تحدثوا عن مدينة "**بترا**" التي حضروا لزيارتها. قالت "**كارول**" :

– إنها حلم يصعب وصفه، هؤلاء الذين عاشوا فيها حتى قبل أن يبدأ التاريخ! وتدخل السيد "**باين**" :

– ليس إلى هذا الحد، أليس كذلك يا سيد "**كارفر**" ؟

– اختلاف في مجرد ألفي سنة، وكان سكانها ذوي حيلة؛ فقد أجبروا كل القوافل على أن تعبر عن طريقهم هم بأن جعلوا كل الطرق الأخرى غير آمنة؛ فكانت "**بترا**" قلعة ابتزاز أموال. وسألته "**كارول**" :

– هل تظن أنهم كانوا لصوصًا؟ مجرد لصوص؟

– لم يكونوا لصوصًا بالمعنى العادي، أعني أنهم لم يقوموا بسرقات بسيطة، وإنما كانوا لصوصا على نطاق واسع. وسأله السيد "**باين**" في خبث:

– مثل رجال المال في عصرنا هذا؟ وضحكت "**كارول**" :

– عليك أن ترد أنت على هذا يا أبي. وقال السيد "**بلاندل**" :

– إن الإنسانية تستفيد من رجال المال. ورد السيد "**باين**" :

– والإنسانية غير معترفة بالجميل. وقال الفرنسي:

– لا توجد قيم ثابتة في العالم؛ فالقيم تختلف باختلاف البلاد والعادات، وما يعتبر سرقة في مكان قد لا يعتبر كذلك في مكان آخر. وتدخل السير "**دونالد**" :

– اللص يظل طوال عمره لصا، لا يغير من أمره زمان ولا مكان. وساد السكون فترة، ثم بدأت "**كارول**" تشكو من لسعات البعوض، ومال السير "**دونالد**" على السيد "**باين**" وهمس في أذنه:

– يبدو أن كلامي كان كالصخر.

– أمر لافت للنظر فعلا. ومهما كان الحرج واضحا إلا أنه كان هناك شخص يبدو لاهيا تماما عما يقال، وهو عالم الآثار الذي جلس صامتا ساهما كأنه غائب عن كل ما يدور حوله إلى أن قال فجأة:

– أنا موافق على هذا الرأي تماما، لكن بطريقة عكسية؛ فإن الرجل إما أن يكون شريفا من الأصل وإما أن يكون غير شريف، ولا يمكن تغيير هذا إلى ذلك. وسأله السيد "**باين**":

– ألا تعتقد أن تجربة مفاجئة مثلا قد تجعل من الرجل الشريف مجرما؟

– مستحيل. وهز السيد "**باين**" رأسه:

– لا أستطيع أن أقول إنه مستحيل؛ فهناك عوامل عديدة يجب أن نأخذها في الحسبان، هناك النقطة التي ينهار معها كل شيء. وتكلم "**هيرست**" لأول مرة:

– ماذا تعني بالنقطة التي ينهار معها كل شيء؟

– إن العقل مجهز ليتحمل ثقلا معينا، والشيء الذي قد يجعل رجلا شريفا يتحول إلى مجرم قد يكون أمرا تافها للغاية؛ لهذا كانت معظم الجرائم لا معنى لها؛ لأن سببها في تسعة أحوال من كل عشرة هو هذا الأمر التافه، القشة التي تقصم ظهر البعير. وقال الفرنسي:

– هذا كلام في علم النفس يا صديقي. ورد السيد "**باين**" وهو يفكر حالما:

– إذا كان المجرم عالما نفسانيا فإنه يصبح مجرمًا عاتيا، تصور أنه بين كل عشرة أشخاص تقابلهم تسعة منهم يمكنك أن تؤثر فيهم ليفعلوا ما شئت إذا أخضعتهم للتأثير المناسب. وصاحت "**كارول**":

– أرجوك، اشرح لنا هذا.

– هناك الشخص الذي يمكن التأثير فيه بمجرد الصراخ؛ فإذا صرخنا فيه أطاع، وهناك الشخص العكسي تماما إذا صرخنا فيه؛ فإنه يتصرف في اتجاه عكسي لما نريد منه أن يفعل، ثم هناك الأشخاص الذين يمكن الإيحاء إليهم، وهم أعم الأصناف، هؤلاء الذين إذا سمعوا مثلا صوت محرك دائر يمكن الإيحاء إليهم بأنهم يرونه فعلا، أو الذين يرون السكين في الجرح إذا قيل لهم إن شخصا ما قد طعن، أو يؤكدون أنهم سمعوا طلقة مسدس إذا قيل لهم إن شخصا أصابته رصاصة. قالت "**كارول**" في تشكك:

– لا أظن أن أحدا يستطيع أن يوحي إليَّ بمثل هذه الأشياء. وقال أبوها:

– ذلك لأنك في منتهى الذكاء يا حبيبتي. وقال الفرنسي:

– لكن هذا الكلام صحيح، فالفكرة . . . وتثاءبت "**كارول**" قائلة :

– سأذهب إلى فراشي؛ أكاد أموت من التعب، و"**عباس**" أفندي قال إننا سنبدأ مبكرين في الصباح لكي نستطيع رؤية مكان تقديم الضحايا، إذا كان هذا يعني شيئا. وقال السير "**دونالد**" :

– كانوا يقدمون الفتيات الجميلات قربانا هناك.

– أرجو عكس ذلك، على العموم أسعدتم مساء جميعا. آه! لقد سقط قرطي! والتقطه العقيد "**دي بوسك**" من فوق المائدة حيث سقط، وأعاده إليها. وسألها السير "**دونالد**" فجأة :

– هل اللآلئ حقيقية؟ وكان ينظر بوقاحة إلى اللؤلؤتين الكبيرتين اللتين تحليان أذنيها. وردت "**كارول**" :

– طبعا حقيقية. وقال أبوها :

– دفعت ثمانين ألف دولار ثمنا لهما، ومع ذلك تضعهما بكل إهمال ويسقطان منها طيلة الوقت، أتريدين إفلاسي يا صغيرتي؟

– لن تفلس حتى ولو كان عليك أن تشتري لي قرطا جديدا!!

– ربما لن أفلس. ففي وسعي أن أشتري لك ثلاثة دون أن يهتز حسابي في البنك. ونظر حوله بافتخار وقال له السير "**دونالد**" :

– إنك رجل محظوظ. وخرج السيد "**بلاندل**" يتبعه "**هيرست**" وابتسم الأربعة الآخرون باستخفاف. قال "**دي بوسك**" :

– لديهم مال كثير هؤلاء الأمريكان. وقال السيد "**باين**" بهدوء :

– من العسير أن تقوم مودة بين الفقير والغني. وضحك الفرنسي :

– من الحسد والغيرة؟ أنت على حق يا سيدي؛ فكلنا نريد أن نصبح أغنياء، نشتري أقراطا لؤلؤية عديدة، ربما فيما عدا هذا السيد. وانحنى في اتجاه السيد "**كارفر**" الذي كان كالمعتاد ساهما، وكان في هذه المرة يعبث بشيء صغير في يده، وتنبه إلى أن الجميع ينظرون إليه :

– ماذا؟ آه! يجب أن أعترف لكم بأنني أكره اللآلئ الكبيرة، طبعا هناك فوائد عديدة للمال لكن هناك شيئا أهم ألف مرة من اللآلئ.

– وما هو؟

– إنه خاتم أسطواني من "الهماتيت الأسود"، منقوش عليه صورة لإله يقدم فروض الولاء لإله آخر أعلى منه مقاما، والقربان الذي يقدمه هو طفل صغير، وخلف الإله الأكبر يقف مارد يهش الذباب من حوله بسعف النخيل، والنقوش تدل على أن الرجل كان خادما لـ"**حامورابي**" أي أن تاريخ الخاتم يرجع إلى ما قبل أربعة آلاف سنة. وأخرج قطعة من الصلصال من جيبه وبسطها على المائدة ثم ضغط عليها بالخاتم وقطعها بمطواة صغيرة ورفعها عن المائدة، وكان المشهد الذي وصفه لهم واضحا تماما على الصلصال، ووقف الجميع يشاهدونه وهم مبهورون إلى أن جاءهم صوت السير "**بلاندل**" عاليا من الخارج:

– أخرجوني من هذا المكان اللعين وضعوني في خيمة أخرى، إن الملاعين (غير المتطورين) كادوا يقضون عليَّ، إنهم يلذعون بشدة هذا المساء ولا يمكنني أن أنام. وتساءل السير "**دونالد**":

– غير المتطورين؟ فرد عليه الدكتور "**كارفر**":

– ذباب صحراوي دون شك. وقال السيد "**باركر باين**":

– تعجبني هذه التسمية. (غير المتطورين)، إنه اسم شديد الإيحاء.

بدأت الرحلة في فجر اليوم التالي وسارت القافلة ببطء لأن الدكتور "**كارفر**" كان يسير وعيناه مثبتتان على الأرض وهو ينحني من وقت لآخر ليلتقط شيئا. قال العقيد "**دي بوسك**":

– من الممكن دائما أن تعرف علماء الآثار؛ فإنهم لا يتطلعون قط إلى السماء أو التلال أو حتى إلى جمال الطبيعة، دائما ينحنون إلى الأرض يبحثون. وسألت "**كارول**":

– هذا صحيح لكن عما يبحثون؟ ما هي الأشياء التي تلتقطها يا دكتور "**كارفر**"؟ وأراها الدكتور "**كارفر**" قطعتين من الفخار القديم وهو يبتسم. فقالت "**كارول**" باحتقار:

– هذه الأشياء التافهة!!

– إن الفخار أكثر إثارة للاهتمام من الذهب. ونظرت إليه "**كارول**" غير مصدقة. ووصلوا إلى منحنى، ومروا بجانب ثلاثة مقابر منحوتة في الصخر. وبدأ الصعود الشاق، صعد أمامهم رجال البدو بسهولة دون أن ينظروا مرة إلى أسفل، واصفر وجه "**كارول**".

فمد لها أحد البدو يده وقفز "**هيرست**" بسرعة أمامها ومد لها أيضا عصاه، وشكرته "**كارول**" بابتسامة، وفي دقيقة كانت واقفة في أمان على قمة الصخرة وتبعها الآخرون. وكانت الشمس قد استوت في كبد السماء، وبدأت الحرارة تشتد، وأخيرا وصلوا إلى هضبة بالقرب من القمة، وبعد صعود سهل تمكنوا من الوصول إلى قمة صخرة كبيرة مربعة. وأبلغ "**بلاندل**" الدليل بأن المجموعة ستتابع الصعود وحدها، فجلس رجال البدو مستندين إلى الصخرة وهم يدخنون، وبعد دقائق قليلة كان الآخرون قد وصلوا إلى القمة، كان المكان غريبا وعاريا تماما وكان المنظر أخاذا والوادي منبسطا أمامهم مدى النظر. قالت "**كارول**" بحماس:

– مكان رائع لتقديم القرابين؛ لكنه كان بلا شك عملا شاقا أن يحضروا ضحاياهم إلى هذا المكان المرتفع. وقال الدكتور "**كارفر**" :

– كان يوجد قديما طريق صخري متعرج، وسوف نرى بقاياه عند نزولنا من الجانب الآخر. ووقفوا برهة يتحدثون ثم سمعوا رنين صوت معدني فقال الدكتور "**كارفر**" :

– أعتقد أن القرط قد سقط مرة أخرى يا آنسة "**بلاندل**". ووضعت "**كارول**" يدها على أذنها وصاحت:

– هذا صحيح. وبدأ "**دي بوسك**" و"**هيرست**" يبحثان عن القرط وقال الفرنسي:

– لابد من أنه موجود هنا؛ فالمكان مسطح ولا يمكن أن يكون قد تدحرج بعيدا. وسألته "**كارول**" :

– هل يمكن أن يسقط في شق ما؟ فقال السيد "**باركر باين**" :

– لا يوجد أي شق في هذا المكان؛ فالصخر أملس جداً، آه! هل وجدت شيئا يا عقيد؟

– مجرد حصاة صغيرة. وبعد قليل بدأ نوع من التوتر يخيم على الجماعة، ومع أن أحدهم لم يقل شيئا إلا أنه كان هناك رنين الثمانين ألف دولار من حولهم، وسألها والدها بجفاء:

– هل أنت متأكدة أنك كنت تتزينين به؟ من الجائز أن يكون قد سقط منك في أثناء الصعود.

– أنا متأكدة أنه كان في أذني عند وصولنا إلى الهضبة؛ لأن الدكتور "**كارفر**" نبهني

إلى أنه غير محكم وربطه لي بنفسه، أليس كذلك يا دكتور؟ ووافقها الدكتور "**كارفر**" ثم تكلم السير "**دونالد**" معبرا عما يجول بخاطر الآخرين:

– إنه لأمر محرج للغاية يا سيد "**بلاندل**"، لقد ذكرت لنا أمس قيمة هذا القرط وأن فردة منه تساوي ثروة صغيرة؛ فإذا لم نعثر عليه وهذا ما يبدو حتى الآن فإننا لن نتمكن من العثور عليه؛ فسيكون كل فرد فينا موضع شبهة... وقاطعه العقيد "**دي بوسك**":

– إني أطلب تفتيشي. وقال "**هيرست**" بصوت أجش:

– وأنا أيضا يمكنكم أن تفتشوني. وسأل السير "**دونالد**" الآخرين:

– وما رأيكم؟ قال السيد "**باين**":

– بكل تأكيد. وقال الدكتور "**كارفر**":

– فكرة صائبة. وقال السيد "**بلاندل**":

– وأنا أيضا أيها السادة، فعندي أسباب تجعلني لا أرفض أن تفتشوا وإن كنت لا أريد الإفصاح عنها. وطلب من ابنته أن تتركهم وتنضم إلى الدليل والبدو وتركتهم "**كارول**" دون أن تنبس بكلمة، ووجهها يبدو عليه يأس شديد لاحظه أحد أفراد الجماعة وتعجب؛ إذ لم يدرك له سببا.

وبدأ التفتيش، كان دقيقا وشاملا لكن اتضح أن القرط غير موجود مع أي منهم، ونزلوا من فوق القمة مكتئبين وأكملوا الرحلة دون اهتمام. كان السيد "**باين**" يغير ملابسه قبل الغداء عندما ظهر شخص على باب خيمته.

– هل تسمح لي بالدخول يا سيد "**باين**"؟

– تفضلي يا سيدتي العزيزة. ودخلت "**كارول**" وجلست على السرير وكان على وجهها التعبير نفسه الذي لاحظه في الصباح.

– أنت تدعي أنك تحل مشاكل الناس عندما يصيبهم سوء، أليس كذلك؟

– أنا في إجازة يا آنسة "**بلاندل**" ولا أقبل قضايا. فردت عليه بهدوء:

– لكنك ستقبل هذه القضية، أصغِ لي يا سيد "**باين**"، أنا أشد تعاسة من كثيرين.

– ماذا في الأمر؟ مسألة القرط؟

– بالضبط. "**جيم هيرست**" لم يأخذ القرط، إنني أعرف أنه لم يأخذه.

– يبدو أنني لا أفهم تماما، لماذا يتبادر إلى ظن أي شخص أنه هو بالذات الذي أخذه؟

– من سوابقه؛ فـ"**جيم هيرست**" كان لصا يوما ما قبض عليه في منزلنا، أشفقت على حاله، كان صغيرا ويائسا؛ فأقنعت والدي بأن يمنحه فرصة، ووالدي على استعداد لأن يفعل أي شيء أطلبه منه، أعطى "**جيم**" فرصة وأثبت أنه جدير بها وبدأ والدي يركن إليه ويأتمنه على أسرار عمله، وكان كل شيء يسير على ما يرام إلى أن وقع حادث اليوم.

– ماذا تعنين بـ"على ما يرام"؟

– نحن نريد أن نتزوج.

– وماذا عن السير "**دونالد**"؟

– السير "**دونالد**" هذا هو الذي اختاره أبي، هل تظن أنني أقبل الزواج بسمكة محنطة مثل السير "**دونالد**"؟ ولم يبدِ السيد "**باين**" رأيه في الشاب الإنجليزي، إنما قال:

– والسيد "**دي بوسك**"؟

– السيد "**دي بوسك**" يظن أنني سأكون ذات نفع لضيعته المرهونة. وفكر السيد "**باركر باين**" قليلا ثم قال:

– أريد أن أسألك عن شيئين. بالأمس أبدى البعض ملاحظة بأن اللص يبقى دائما لصا. وهزت الفتاة رأسها.

– الآن فهمت الحرج الذي تسببت فيه هذه الملاحظة. أجل، كانت محرجة لـ"**جيم**" ولأبي ولي أيضا، كنت أخشى أن ينم وجه "**جيم**" عن استيائه؛ ولذلك حاولت أن أغير مجرى الحديث فقلت أي شيء خطر ببالي في ذلك الوقت.

– ولماذا أصر والدك على تفتيشه اليوم؟

– ألم تفهم السبب؟ أنا فهمته. فقد ظن والدي أنني قد أعتقد أن الأمر شرك نصب ليقع فيه "**جيم**"؛ فهو يريدني أن أتزوج هذا الإنجليزي وأراد أن يثبت لي أنه لم يقم بعمل دنيء؛ ليثنيني عن "**جيم**".

– إن هذا لا يساعدنا كثيرا على معرفة حقيقة ما حدث اليوم.

– هل يئست هكذا بسرعة؟

– لا. ما الذي تريدين مني أن أفعله بالضبط؟

– أثبت أن "**جيم**" لم يسرق القرط.

– ولنفترض – بعد إذنك – أنه فعلا سرقه.

– إذا كنت تظن ذلك فأنت مخطئ، مخطئ جداً.

– نعم، لكن هل فكرت في الأمر بإمعان؟ أليس من المحتمل أن تكون اللؤلؤة تجربة شديدة للسيد "**هيرست**"؟ إذا باعها فسيظفر منها بمبلغ كبير من المال يبدأ به عملا مستقلا، وبذلك يمكنه الزواج بك دون موافقة والدك.

– "**جيم**" لم يسرق القرط.

– حسنا، سوف أفعل ما بوسعي. وغادرت الخيمة وجلس السيد "**باين**" يفكر مدة. ثم فجأة ضحك وقال:

– لقد بدأت أفقد ذكائي. كان مرحا جداً ساعة الغداء، ومر بعد الظهر بسلام، كان أغلبهم نياما، ولما دخل السيد "**باين**" الخيمة الكبيرة في الساعة الرابعة لم يجد غير الدكتور "**كارفر**" الذي كان منهمكا في فحص بعض قطع من الفخار. بادره السيد "**باين**":

– أنت الشخص الذي أبحث عنه بالذات، هل يمكنك أن تعيرني قطعة الصلصال التي معك؟ وبحث "**كارفر**" في جيوبه وأخرج قطعة الصلصال وناولها للسيد "**باين**":

– لا، ليست هذه، أريد القطعة التي كانت معك مساء أمس، وبصراحة لست أريد الصلصال نفسه لكن محتوياته. وساد السكون فترة ثم قال الدكتور "**كارفر**" بهدوء:

– لا أظن أنني أفهم تماما ما تعنيه.

– بالعكس أظن أنك تفهم، أريد قرط الآنسة "**بلاندل**". ومرت دقيقة من السكون المطبق ثم وضع "**كارفر**" يده في جيبه وأخرج كتلة من الصلصال.

– منتهى البراعة منك. (ولم يكن على وجهه أي تعبير) لماذا لا تقول لي كل شيء؟ وكانت أصابع السيد "**باين**" تستخرج اللؤلؤة الملطخة بالصلصال:

– أنا أعرف أن هذا قد يبدو ضربا من الفضول، لكني أود أن أعرف السبب.

– سأكاشفك بكل شيء ولكن بشرط أن تخطرني بالكيفية التي عرفت بها أني أنا الذي أخذت القرط؛ فإنك لم ترني طبعا؟

– لم أر شيئا، فقط فكرت في الأمر.

– بدأ الأمر عرضيا جداً، كنت أسير خلفكم هذا الصباح ووجدته ملقى أمامي، سقط من أذن الفتاة دون أن تدري، لم يلحظ أحد الأمر فالتقطته ووضعته في جيبي لأعيده لها

حالما ألحق بها لكن نسيت، وبينما نحن نصعد فكرت في الأمر: لم يكن للؤلؤة أية أهمية عند الفتاة؛ فإن أباها يستطيع أن يشتري لها لؤلؤة أخرى دون أن يرهقه الثمن في حين أن ثمنها يعني الكثير بالنسبة إليَّ؛ فيمكن به أن أجهز بعثة تنقيب كاملة، هل تعرف الصعوبات التي نلاقيها الآن لكي نجمع نفقات رحلات الاستكشاف أو لأعمال الحفريات؟ أريد أن أقوم بها في "**بالوخستان**"؛ فهناك جيل كامل التاريخ ينتظر من يكشفه.

ثم تذكرت ما قلته أمس عن الإيحاء وضمنت أن الفتاة من النوع الذي يسهل الإيحاء إليه، ولما وصلنا القمة قلت لها إن قرطها غير محكم وتظاهرت أني أثبته في أذنها، كل ما فعلته هو أني ضغطت بطرف الكم على أذنها، وبعد فترة أسقطت حصاة صغيرة. وكانت الفتاة متأكدة أن القرط كان في أذنها وقد سقط في تلك اللحظة منها في حين أني كنت قد دفنت اللؤلؤة في الصلصال، هذه هي القصة والآن هات ما عندك.

– ليس عندي الكثير، كنت الوحيد الذي كان يلتقط أشياء من الأرض، وهذا هو الذي نبهني إليك، ثم العثور على الحصاة أوضح اللعبة التي قمت بها ثم...

– ثم ماذا؟

– إنك تكلمت عن الشرف بشيء من الحماس أمس ودافعت عن الأمر بشدة، أنت تعرف ما قاله "**شكسبير**"، بدوت وكأنك تريد أن تقنع نفسك، ثم إنك كنت شديد الاحتقار للمال أكثر من اللازم.

– حسنا. انتهت اللعبة، سوف تعيد الحلية إلى الفتاة طبعا. غريب جداً أمر الحلي؛ فهي همجية تعود إلى العصر الحجري، غريزة ظهرت مع أول أنثى ظهرت على الأرض.

– أظن أنك تقسو على الآنسة "**كارول**"، إنها فتاة ذكية وقلبها كبير، لا أظن أنها ستخبر أحدا بما حدث.

– لكن والدها لن يسكت.

– أظن أنه سيسكت؛ فلديه من الأسباب ما يجعله يفعل ذلك؛ فالقرط لا يساوي هذا المبلغ إطلاقا، ربما خمسة آلاف كانت أقرب إلى الحقيقة.

– هل تعني...؟

– الفتاة لا تعرف، تظن أن اللؤلؤ حقيقي، بدأت أشك في الأمر أمس؛ فقد كان

"**بلاندل**" يكثر الكلام عن ثرائه وعندما تسوء الأحوال يلجأ المرء دائما إلى المبالغة و"**بلاندل**" كان يبالغ أمس. وفجأة ابتسم "**كارفر**" وبدا كطفل صغير اكتشف شيئا.

– إذن ففي الحقيقة كلنا في الفقر سواء.

– بالضبط، إن الفقر صفة تجمع بيننا جميعا.

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل الحادي عشر

جورج باكنجتون: الزوج

السيدة ماريا باكنجتون: الزوجة

كلود لوتريل: شاب يعمل مع "**باركر باين**"

الفصل الحادي عشر
مشكلة زوجة في منتصف العمر

أربع همهمات... صوت ساخط يتساءل: لمَ لا يتركون القبعة مكانها... الباب يصفق بشدة... ثم خرج السيد "**باكنجتون**" ليلحق بقطار التاسعة إلى المدينة، أما السيدة "**باكنجتون**" فاستمرت جالسة إلى مائدة الإفطار بوجهها المحتقن، وشفتاها مزمومتان، والسبب الوحيد الذي منعها من البكاء هو أنها في اللحظة الأخيرة كان حزنها قد تحول إلى غضب!

– لن أتحمل هذا. (قالت السيدة "**باكنجتون**") لن أتحمل هذا. وظلت تفكر لحظات، ثم أردفت بصوت خافت:

– هذه الخليعة، هذه القطة الخبيثة، بالله كيف يكون "**جورج**" بهذا الغباء؟ وتبدد الغضب ليحل محله الحزن مرة أخرى. وبدأت الدموع تترقرق في عيني السيدة "**باكنجتون**"، ثم تنحدر على وجنتيها ببطء.

– طبعا من السهل أن أقول إنني لن أتحمل هذا، لكن ماذا أستطيع أن أفعل حياله؟ وفجأة أحست أنها وحيدة، عاجزة ومهجورة تماما، وببطء التقطت الجريدة الصباحية، وبدأت تقرأ مرة أخرى الإعلان المنشور على الصفحة الأولى. "هل أنت سعيد؟ إذا لم

تكن سعيدا فاستشر السيد "**باركر باين**"، 17 شارع "**ريتشموند**".

– كلام فارغ، كلام فارغ تماما. ثم أردفت بعد برهة:

– ومع ذلك.. فيمكنني أن أجرب...

ولهذا كانت السيدة "**باكنجتون**"، في شيء من الانفعال، تدخل مكتب السيد "**باركر باين**" في تمام الساعة الحادية عشرة. ومع أن السيدة "**باكنجتون**" كانت متوترة الأعصاب فإن مجرد رؤيتها السيد "**باركر باين**" أعاد إليها الشعور بالثقة. كان منظره ضخما ولكن دون سمنة، كان أصلع وعلى وجهه ملامح النبلاء، نظارته الطبية سميكة ومن خلفها تبرق عيناه الصغيرتان. قال لها السيد "**باركر باين**":

– أرجوك أن تجلسي. هل جئت بناء على الإعلان المنشور في الصحف؟ وأجابت السيدة "**باكنجتون**":

– أجل. ولم تزد شيئا، قال السيد "**باركر باين**":

– وأنت لست سعيدة. (وكان صوته بشوشا وطبيعيا). السعداء قلة.

– أصحيح ذلك؟ قالتها السيدة "**باكنجتون**" وكأنها لا تقيم أي وزن لغيرها من الناس، سعداء كانوا أو لم يكونوا. قال السيد "**باركر باين**":

– أعرف أن هذا لا يهمك لكنه يهمني أنا. لقد أمضيت خمسة وثلاثين عاما من عمري وأنا أجمع الإحصائيات في إحدى الإدارات الحكومية، والآن، وقد اعتزلت هذا العمل، فكرت في أن أستغل هذه الخبرة التي اكتسبتها بطريقة جديدة في منتهى البساطة؛ فالتعاسة يمكن أن تقسم إلى خمسة أقسام لا أكثر، صدقيني، ومتى عرف السبب فإن العلاج لا يكون مستحيلا..

إني أضع نفسي مكان الطبيب... والطبيب يبدأ بتشخيص علة المريض، ثم يشرع في وصف العلاج اللازم، هناك طبعا حالات لا يُجدي معها أي علاج، وفي هذه الحالة سأقول بكل صراحة لا يمكنني عمل شيء ولكنني أؤكد لك يا سيدتي أنني عندما أتولى إحدى الحالات فإن علاجها يصبح شبه مؤكد.

– أيمكن هذا؟ هل هذا كلام فارغ أم يمكن أن يكون حقا؟ وحدقت السيدة "**باكنجتون**" إلى وجهه يحدوها الأمل. وأضاف السيد "**باركر باين**":

– هل نبدأ بتشخيص حالتك؟ ثم ابتسم ومال إلى الوراء بكرسيه وهو يقول:

– المشكلة تتعلق بزوجك؛ فقد كانت حياتك الزوجية سعيدة بوجه عام، وحسب ما فهمت فقد أثرى زوجك، وأظن أن هناك فتاة في المشكلة... ربما كانت فتاة في مكتب زوجك. واندفعت السيدة "**باكنجتون**" تقول:

– عاملة على الآلة الكاتبة، خليعة متبهرجة، حقيرة! تصبغ شفتيها، وتعقص شعرها وترتدي جوارب! وهز السيد "**باركر باين**" رأسه يهدئ ثورتها:

– ليس هناك أي ضرر في ذلك، أظن أن هذا هو ما يقوله زوجك أيضا.

– بالحرف الواحد تماما.

– إذن فلماذا لا تقوم بينه وبين هذه الفتاة علاقة صداقة بريئة؛ يمكن أن تدخل على حياتها المملة القليل من البهجة والسرور؟ مسكينة هذه الطفلة! إنها قلما تستمتع.. أحسب أن هذا هو ما يردده. واندفعت السيدة "**باكنجتون**" تقول بحماس:

– هراء، كله هراء! إنه يذهب بها في نزهات نهرية، وأنا أحب النزهات النهرية، لكنه منذ خمس أو ست سنوات بدأ يتعلل بأنها تتعارض مع الجولف، لكنه مستعد لأن يضحي بالجولف من أجل خاطرها هي! ثم أنا أحب المسرح، و"**جورج**" كان يتعلل دائما بأنه متعب ولا يحب السهر! والآن يخرج معها ليرقص.. تصور ليرقص! ويعود إليَّ في الثالثة صباحا!! أنا... أنا...

– ومن الطبيعي أنه ينتقد غيرة النساء، هذه الغيرة الشديدة التي ليس لها داعٍ على الإطلاق. فأومأت السيدة "**باكنجتون**" برأسها:

– تماما. كيف عرفت كل هذا؟

– الإحصائيات. قالها السيد "**باركر باين**" ببساطة شديدة.

– إنني في غاية التعاسة، كنت دائما زوجة صالحة لـ"**جورج**"، أرهقت نفسي بالعمل في أيامنا الأولى، ساعدته ليشق طريقه، طوال حياتي لم أفكر في رجل آخر؛ فدائما كنت أصلح ثيابه، وأعد له وجبات شهية، وأدبر شؤون المنزل بطريقة منظمة واقتصادية، والآن وقد تحسن مستوانا وأصبح بإمكاننا أن ننعم بحياتنا، ونعمل الأشياء التي طالما تطلعت إليها... يحدث هذا. وابتلعت ريقها بصعوبة وأطرق السيد "**باركر باين**" باهتمام وقال:

– أستطيع أن أؤكد لك أنني متفهم لمشكلتك تماما.

– وهل بإمكانك أن تفعل شيئا؟ وكان صوتها يقرب من الهمس.

– طبعا يا سيدتي العزيزة هناك علاج، طبعا هناك علاج.

– وما هو هذا العلاج؟ واتسعت عيناها في شوق وهي تسأله، فقال السيد "**باركر باين**" بهدوء وثقة:

– ستضعين نفسك بين يدي تماما، وستكلفك العملية مائتي جنيه.

– مائتي جنيه!!

– تماما. في مقدورك أن تدفعي هذا المبلغ؛ فإنك تدفعينه عن طيب خاطر لقاء عملية جراحية، والسعادة لا تقل أهمية عن الصحة البدنية.

– طبعا سأقوم بالدفع بعد أن يتم كل شيء؟

– بالعكس، الدفع مقدمًا. فنهضت السيدة "**باكنجتون**" من مكانها:

– أنا لا أدري كيف يمكنني... فقاطعها السيد "**باركر باين**":

– أن تقامري هكذا؟ ربما كنتِ على حق؛ فالمبلغ لا يستهان به لكن يجب أن تثقي بي تماما، يجب أن تدفعي المبلغ وتجربي حظك، هذه هي شروطي.

– مائتا جنيه!

– بالضبط مائتا جنيه؛ مبلغ كبير من غير شك، أسعدت صباحا يا سيدتي، وأرجو أن تتصلي بي إذا غيرت رأيك. وصافحها مبتسما وكأن شيئا لم يحدث! وبعد أن خرجت ضغط على زر مكتبه فدخلت فتاة جادة الهيئة ترتدي نظارة.

– أحضري ملفا من فضلك يا آنسة "**ليمون**". وأخبري "**كلود**" بأنني قد أحتاج إليه قريبا.

– عملية جديدة؟

– نعم، عملية جديدة، حاليا مازالت مترددة لكنها سوف تعود، ربما بعد الظهر حوالي الرابعة. أدخليها إليَّ.

– جدول "أ"؟

– جدول "أ" طبعا. غريب أن يظن كل إنسان أن حالته فريدة في نوعها. حسنا! حَذِّري "**كلود**": لا أريد تصرفات زائدة عن اللازم ولا داعي إلى العطر، ويستحسن أن يقص شعره. كانت الساعة الرابعة والربع عندما دخلت السيدة "**باكنجتون**" مكتبه مرة أخرى وأخرجت دفتر شيكاتها وحررت الشيك وسلمته إليه وأخذت مقابله إيصالا ثم

نظرت إليه يحدوها الأمل:

– والآن؟ وابتسم السيد "**باركر باين**":

– والآن تعودين إلى المنزل، ستصلك غدا في أول بريد تعليمات معينة، وأكون شاكرا لو نفذتها. وعادت السيدة "**باكنجتون**" إلى منزلها في حالة من الترقب البهيج.

وعاد السيد "**باكنجتون**" يبدو عليه التأهب للدفاع عن نفسه لو أعيدت مناقشة الصباح مرة أخرى، ثم بدا عليه الارتياح عندما وجد زوجته غير راغبة في الجدال، وكان يبدو عليها التفكير العميق على خلاف المعتاد. وجلس "**جورج**" يستمع إلى المذياع وهو يفكر فيما إذا كانت الفتاة العزيزة "**ناسي**" ستسمح له بأن يشتري لها المعطف الفرو؟ كان يعلم أنها شديدة الكبرياء ولم يكن يريد أن يجرح شعورها. لكنها كانت تشكو البرد. وكان معطفها من نوع حقير لا يقيها من البرودة، ربما كان بإمكانه أن يقدمه لها بطريقة تقبلها.

ثم يجب أن يخرجا مرة أخرى معا، كان من الممتع أن يصحب فتاة كهذه إلى مطعم أنيق، إن الشبان يحسدونه لأن جمالها كان غير عادي، وهي معجبة به، ولم يكن في نظرها كبيرا في السن كما قالت له. ورفع رأسه ونظر إلى زوجته وهي ترمقه، وتضايق لأن شعورا بالذنب راوده... يا لها من امرأة ضيقة العقل وكثيرة الشكوك! إنها تضن عليه حتى بالقليل من السعادة.

وفي الصباح التالي حمل البريد خطابين إلى السيدة "**باكنجتون**"، كان أحدهما يحتوي على ورقة مطبوعة تحدد لها ميعادا في أحد مراكز التجميل المشهورة، والثاني يحدد ميعادا آخر عند أحد بيوت الأزياء المعروفة. وكان هناك خطاب ثالث من السيد "**باركر باين**" يدعوها فيه إلى الغداء في الـ"**ريتز**" في اليوم نفسه، وأخبرها السيد "**باكنجتون**" بأنه لن يعود هذا المساء لتناول العشاء في البيت لارتباطه بموعد مع أحد رجال الأعمال، وهزت السيدة "**باكنجتون**" رأسها لا شعوريا، وغادر السيد "**باكنجتون**" المنزل سعيدا لأنه تفادى العاصفة!

عاتبها إخصائي التجميل على إهمالها طيلة هذه السنوات، لكنه طمأنها على أن الوقت لم يفت، ودلك وجهها، ووضع عليه الكريم والبُدرة وأشياء أخرى عديدة ثم

أعطاها مرآة لترى وجهها، وفكرت السيدة "**باكنجتون**" في نفسها... إنها فعلا تبدو أصغر سنا.

وكانت زيارة بيت الأزياء مثيرة هي الأخرى، وخرجت من هناك تشعر بأنها أنيقة وعصرية. وفي تمام الواحدة والنصف كانت في الـ"**ريتز**". وبدا السيد "**باركر باين**" أنيقا في ملبسه يوحى منظره بالطمأنينة. وتفحصها من رأسها إلى قدميها.

- فاتنة! لقد بادرت وطلبت لك كوكتيلا. ولم تُبد السيدة "**باكنجتون**" أي اعتراض مع أنها لم تألف شرب الكوكتيل، وبدأت ترتشف الكوكتيل المثير وهي تنصت إلى أستاذها.

- يجب علينا أن نشد اهتمام زوجك، هل تفهمينني؟ نشد انتباهه؛ لهذا سوف أُعرِّفك إلى شاب من أصدقائي وسوف تتناولين الغداء معه اليوم، وفي هذه اللحظة تقدم منهما شاب يخطو برشاقة، وقال السيد "**باركر باين**":

- السيد "**كلود لوتريل**"... السيدة "**باكنجتون**". وكان يبدو على "**كلود لوتريل**" أنه دون الثلاثين بقليل، كان رشيقا، جذابا، أنيقا، وجميلا للغاية. وغمغم "**لوتريل**" قائلا:

- إني سعيد جدًّا بمعرفتك. وبعد ثلاث دقائق كانت السيدة "**باكنجتون**" تجلس مع رفيقها على مائدة صغيرة معدة لاثنين، انتابها الخجل في بداية الأمر، لكن سرعان ما أعاد إليها السيد "**لوتريل**" ثقتها بنفسها، كان يعرف "**باريس**" جيدا وأمضى وقتا طويلا في "**الريفييرا**". سألها:

- هل تحبين الرقص؟ فأجابت:

- أجل.. ولكنني لا أرقص في هذه الأيام لأن زوجي لا يحب السهر. وابتسم "**كلود لوتريل**" عن صف من الأسنان اللامعة:

- ولكن كيف يقسو فيترك امرأة مثلك في المنزل، لا يمكن أن تصبر النساء على غيرة الأزواج في وقتنا هذا. وأوشكت السيدة "**باكنجتون**" أن تقول له إنه لا شأن لذلك بالغيرة لكنها آثرت أن تحتفظ لنفسها بهذه الفكرة الكريهة. وتحدث "**كلود لوتريل**" كثيرا عن النوادي الليلية واتفقا على أن يذهبا في مساء اليوم التالي إلى الملهى المشهور

"**الملاك الصغير**" .

وكانت سهرة رائعة؛ فقد كانت تجيد الرقص وهي فتاة وكان من السهل عليها أن تتعلم الرقصات الحديثة بإرشاد "**كلود لوتريل**" الخبير، وقد أطرى طريقة تصفيف شعرها وأبدى إعجابه بثوبها، وعندما غادرها في نهاية السهرة قبَّل يدها، ولم تكن قد تمتعت بسهرة كهذه منذ سنين طويلة!

وتوالت أيام عشرة مشحونة بالأحداث: غداء، شاي، ورقص، واستمعت إلى قصة طفولة "**كلود لوتريل**" الحزينة، وكيف أن والده فقد كل ثروته في ظروف مؤسفة، ثم قصة حبه الفاشل وشعوره بالمرارة حيال النساء عامة. وفي اليوم الحادي عشر كانا يرقصان في ملهى "**الأدميرال الأحمر**" .

ولمحت السيدة "**باكنجتون**" زوجها قبل أن يراها هو، وكان مع الفتاة التي تعمل في مكتبه، وكانا هما أيضا يرقصان؛ فقالت السيدة "**باكنجتون**" باستخفاف:

– أهلا "**جورج**"! وسرها جداً أن ترى زوجها وهو يتحول إلى الاحمرار أولا، ثم إلى اللون القرمزي من فرط دهشته الممزوجة بتعبير عن شعوره بالذنب! وشعرت أيضا بأنها سيدة الموقف... مسكين "**جورج**"! ومضت ترقبهما بعد أن عادت إلى مائدتها، لقد ازداد بدانة، وهو يرقص في غير رشاقة، مسكين "**جورج**"! ما أشد شوقه إلى استعادة شبابه!

وهذه الفتاة المسكينة المجبرة على الرقص معه والتظاهر بأنه يعجبها، كان يبدو الملل على وجهها المستند فوق كتفه بحيث لا يستطيع أن يراه.. كان وضعها هي مختلفا تماما، وكان هذا مبعث رضائها التام. واختلست النظر إلى "**كلود**" الذي أحسن تقدير الموقف، فخلد إلى السكون، كان يفهمها حق الفهم، ونظرت إليه مرة أخرى والتقت عيناهما وابتسم "**كلود**" وهو ينظر إليها وتشع من عينيه السوداوين الجميلتين الكآبة والرقة والشاعرية، وغمغم:

– هل نرقص مرة أخرى؟ ورقصا وشعرت بأنها مُحلقة في السماء! وكانت تحس بنظرات "**جورج**" القلقة تتبعهما، وتذكرت أن أساس الفكرة أن تثير غيرة "**جورج**" لكن هذا كان في البداية، أما الآن فهي لم تعد تبالي بإثارة غيرته، قد يسبب له ذلك إنزعاجا ولكن ما الذي يدعوه إلى أن ينزعج؟ إن الجميع في غاية السعادة! وعادت إلى المنزل بعد ساعة

كاملة من عودة زوجها، كان يبدو عليه الارتباك وعدم الثقة وهمهم:

– ها قد عدت أخيرا. ونزعت السيدة "**باكنجتون**" معطفها الذي ابتاعته في الصباح وكلفها أربعين جنيها.

– أجل عدت. وتنحنح "**جورج**" :

– كان من الغريب أن نتقابل.

– أحقا؟

– آه... إنني فكرت من باب الشفقة أن أصطحب الفتاة إلى مكان ما؛ فقد كانت تعاني مضايقات منزلية كثيرة... من باب الشفقة... كما تعلمين. وأومأت السيدة "**باكنجتون**" برأسها. مسكين "**جورج**" العجوز! يتواثب راقصا على الرغم من بدانته وينضح عرقا ويفرح بنفسه!!

– من هذا الشاب الذي كان معك الليلة ؟ لا أظن أنني أعرفه.

– اسمه "**لوتريل**"، "**كلود لوتريل**" ؟

– وكيف تعرفت إليه؟ كانت إجابتها غامضة.

– عرفني به بعضهم.

– غريب أن ترقص مَن كانت في مثل سنك هذا؛ لا تجعلي من نفسك أضحوكة ياعزيزتي. وابتسمت السيدة "**باكنجتون**"، كانت تشعر برضاء بالغ نحو الدنيا بأسرها، ولذلك أجابت في بشاشة:

– قليل من التغيير قد يكون حسنا.

– لكن يجب أن تكوني حريصة؛ فهناك كثير من هؤلاء الشبان الثعالب الذين يحومون في صالات الفنادق.. والنساء في منتصف أعمارهن يرتكبن أحيانا بعض الحماقات، يجب أن أحذرك يا عزيزتي؛ فأنا لا أحب أن أراك تفعلين ما لا يليق.

– أنا أجد الرقص رياضة مفيدة.

–ربما... أجل.

– وكذلك تجده أنت أيضا. وأردفت بصوت حنون:

– الشيء المهم هو أن نكون سُعداء، أليس كذلك؟ أذكر أنك قلت ذلك ذات صباح على مائدة الإفطار، منذ حوالي عشرة أيام. ونظر إليها زوجها بحدة، ولكن لم يكن في

وجهها ما ينم عن السخرية، ثم تثاءبت وقالت:

- يجب أن أذهب إلى فراشي، وبهذه المناسبة يا "**جورج**"... انتابتني حالة إسراف أخيرا وسترد إليك الفواتير تباعا. هل يضيرك هذا كثيرا؟

- فواتير؟

- أجل، ملابس، تجميل، تدليك، وتصفيف الشعر. كنت مسرفة إلى أقصى حد، ولكنني أعرف أن هذا لا يضايقك.

وصعدت إلى حجرتها بينما ظل السيد "**باكنجتون**" جالسا وقد فغر فاه. كانت "**ماريا**" لطيفة بطريقة مدهشة فيما يختص بموضوع تلك الليلة، ولم يبد عليها أنها اهتمت لكن من المؤسف أنها فجأة بدأت موجة من الإسراف... "**ماريا**" مثال التدبير! وهز "**جورج باكنجتون**" رأسه، ثم المشاجرات التي تسبب فيها إخوة الفتاة، كان من دواعي سروره أنه استطاع المساعدة، ثم إن الأحوال في المدينة عموما لم تكن على ما يرام. وتنهد السيد "**باكنجتون**" وصعد هو الآخر إلى غرفته.

أحيانا تُحدث الكلمات تأثيرها بعد وقت طويل؛ ولذلك لم تحدث كلمات السيد "**باكنجتون**" تأثيرها حتى صباح اليوم التالي... شبان ثعالب! نساء في منتصف العمر! تصرفات حمقاء! وكانت السيدة "**باكنجتون**" شجاعة فواجهت الموقف بصراحة... إنه يقصد قطعا "**جيجولو**" الرجل الذي يعيش عالة على النساء! كانت قد قرأت كثيرا عن أمثاله في الصحف، وكذلك عن حماقات النساء في هذه السن!

لكن هل يعيش "**كلود**" عالة على النساء؟ ربما لكن من دأب الـ"**جيجولو**" أن يجعل المرأة تنفق عليه، و"**كلود**" هو الذي ينفق عليها على الدوام لكن السيد "**باركر باين**" هو الذي يدفع وليس "**كلود**"! والحقيقة أيضا أنها هي التي تدفع من المائتي جنيه، وهل هي حقا حمقاء؟ هل يسخر "**كلود لوتريل**" منها عندما تدير ظهرها؟ واحمر وجهها لهذا الخاطر.

ومع ذلك... لمَ لا؟ "**كلود**" "**جيجولو**"، وهي حمقاء في منتصف العمر، إذن يجب أن تقدم شيئا... علبة سجائر ذهبية مثلا... أو شيئا من هذا القبيل، واستولى عليها دافع غريب جعلها تذهب من فورها إلى محل "**آسبري**" فانتقت علبة سجائر ذهبية

دفعت ثمنها ثم ذهبت إلى "**كلاريدج**" لتقابل "**كلود**" على الغداء. وفي أثناء تناول القهوة أخرجت العلبة من حقيبتها:

– هدية صغيرة. قالتها بصوت خفيض، ونظر إليها عابسا وقال:

– لي؟

– أجل. أرجو أن تعجبك؟ وأمسك "**كلود**" بالعلبة ثم دفعها بعنف عبر المائدة تجاهها:

– لماذا تعطيني شيئا كهذا؟ لن أقبلها أبدا، خذيها.. قلت خذيها... وغمغمت قائلة:

– آسفة. وأسرعت تدس العلبة في حقيبتها. وساد بينهما توتر شديد طوال ذلك اليوم. وفي اليوم التالي خاطبها بالتليفون:

– يجب أن أقابلك، هل أستطيع زيارتك بمنزلك عصر اليوم؟ فطلبت إليه أن يحضر في الثالثة. وعندما حضر كان وجهه ممتقعا وأعصابه متوترة، وتبادلا التحية، وبدا التوتر بينهما أشد وضوحا ثم فجأة هب واقفا أمامها:

– من تظنينني؟ أريد أن أعرف تماما ولهذا جئت! لقد كنا أصدقاء، أليس كذلك؟ أجل، أصدقاء لكن على الرغم من هذا أجدك تحسبينني "**جيجولو**"!! شخص يعيش عالة على النساء. هذا هو ما تظنين، أليس هذا هو ما تظنين؟

– أبدا أبدا. لكنه تجاهل اعتراضها، وبدا وجهه أشد امتقاعا من قبل!

– هذا هو ما تعتقدين... ليكن؛ فهذه هي الحقيقة، وهذا ما جئت أقوله لك، لقد أمرت بأن أصطحبك في كل مكان... أن أسليك... أن أبادلك الحب... أن أساعدك على نسيان زوجك، هذا عملي، عمل حقير... أليس كذلك؟ وسألته:

– لماذا تقول لي كل ذلك؟

– لأني سئمت هذا العمل... لأني لا أستطيع أن أستمر في مثل هذا العمل... ليس معك أنت... إنك تختلفين عن الأخريات... إنك من طراز آخر أستطيع أن أؤمن به... أثق به، أعجب به... ربما ظننت أن أقوالي هذه جزء من عملي. واقترب منها وهو يضيف:

– لكنني سأبرهن لك على صحة كلامي. سوف أرحل... وبسببك أنت، من

أجلك.. سوف أجعل من نفسي رجلا بدلا من هذا المخلوق الكريه. واحتضنها فجأة... وأطبق شفتيه على شفتيها! ثم أرخى ذراعيه ووقف بعيدا عنها:

– الوادع... كنت طيلة عمري فاسدا.. لكن أقسم لك أن الأمر مختلف الآن. هل تذكرين أنك قلت لي مرة إنك تحبين قراءة الإعلانات في عمود هو (الآلام)؟ في مثل هذا اليوم من كل عام ستجدين رسالة مني أقول فيها إنني أذكرك وإنني بخير، وستعلمين عندئذ قيمتك عندي.. وشيء آخر أنا لم آخذ منك أي شيء لكن هل أستطيع أن أعطيك شيئا؟ وخلع من إصبعه خاتما بسيطا.

– هذا الخاتم كان لأمي، أرجوك أن تحتفظي به... والآن وداعا. وتركها واقفة مذهولة وفي يدها الخاتم الذهبي! وعاد "**جورج باكنجتون**" مبكرا هذا المساء، ووجد زوجته جالسة تنظر ساهمة في النار المشتعلة في المدفأة، وكان كلامها إليه رقيقا لكنها كانت شاردة، وفجأة اندفع يقول:

– اسمعي يا "**ماريا**"... بخصوص تلك الفتاة.

– ماذا بخصوصها؟

– لم أقصد قط أن أضايقك، وأنت تعلمين هذا، ليس بيني وبينها شيء.

– أعرف ذلك. لقد كنت غبية... لك أن تلقاها كما تشاء إذا كان في ذلك ما يسعدك. كان من المفروض أن يبتهج السيد "**ماكنجتون**" لهذه الكلمات لكن الغريب أنها ضايقته جدًّا! كيف يمكن للمرء أن يتمتع بصحبة فتاة إذا كانت زوجته هي التي تحثه على ذلك؟ هذا أمر خارج عن المألوف؛ إذا كان قد شعر بأنه رجل ذئب، رجل قوي يلعب بالنار... فقد ماتت هذه المشاعر في نفسه، وفجأة أحس "**جورج باكنجتون**" أنه إنسان متعب وخاوي الوفاض... الفتاة... إنها حقا لفتاة خليعة.. وفي شيء من الخجل قال لزوجته مقترحا:

– يمكننا أن نسافر معا إلى مكان ما يا "**ماريا**" إذا كان يروق لك.

– دعك مني؛ فأنا سعيدة هكذا.

– لكني أحب أن أصطحبك معي، يمكننا أن نذهب إلى "**الريفيرا**". وابتسمت السيدة "**باكنجتون**" لزوجها. مسكين "**جورج**"! كانت مولعة به.. إنه عزيز عجوز وعطوف، ولم يكن في حياته سر خفي يسعده كما في حياتها.. وازدادت ابتسامتها رقة

وقالت:

– جميل جداً أن نسافر معا يا عزيزي.

❖❖❖❖❖

سأل السيد "**باركر باين**" سكرتيرته الآنسة "**ليمون**":

– وحساب الترفيه؟

– مائة جنيه وأربعة عشر شلنا. وفتح الباب ودخل "**كلود لوتريل**" وعليه سمات الشرود.

– أسعدت صباحا يا "**كلود**"، هل سار كل شيء على ما يرام؟

– أعتقد ذلك.

– والخاتم؟ أي اسم حفرت عليه؟ فأجاب "**كلود**" بنوع من الكآبة:

– "**ماتيلدا**". سنة 1899.

– عظيم. ونص الإعلان؟

– أنا بخير. مازلت أذكر.. "**كلود**".

– أرجوك أن تأخذي مذكرة بذلك يا آنسة "**ليمون**"، عمود (الآلام)، الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) لمدة... دعيني أفكر... المصاريف مائة وأربعة عشر شلنا، حسنا لمدة عشر سنوات، هذا يترك لنا ربحا صافيا تسعين جنيها وشلنين. لا بأس، لا بأس إطلاقا. وخرجت الآنسة "**ليمون**" واندفع "**كلود**" يقول:

– اسمع، أنا لا أحب هذه اللعبة، إنها لعبة قذرة.

– يا بني العزيز..

– لعبة قذرة. إنها سيدة فاضلة.. طيبة جداً، كل هذه الأكاذيب... كل هذه الشحنات من العواطف، كل هذا يصيبني بالغثيان. ونظر السيد "**باركر باين**" إلى "**كلود**" باهتمام.

– يا إلهي... أنا لا أذكر إطلاقا أن ضميرك أنّبك في يوم من الأيام في خلال ممارستك مهنتك الوضيعة. إن مغامراتك في "**الريفييرا**" كانت شائنة... كذلك استغلالك للسيدة "**هاتي ويست**" زوجة ملك الخيار في "**كاليفورنيا**" كشف تماما عن مواهبك

وقدرتك على الإبزاز. وزمجر "**كلود**" :

– على أية حال أشعر الآن بأنني شخص آخر، إنها لعبة غير شريفة. ورد عليه السيد "**باركر باين**" بلهجة ناظر المدرسة الذي يؤنب أحد التلاميذ المقربين إليه:

– لقد قمت بعمل جليل يا عزيزي "**كلود**".. أدخلت على حياة سيدة تعيسة ماتحتاج إليه كل امرأة: قصة حب! المرأة يمكنها أن تستنزف أية عاطفة تجيش بها دون أن تخرج منها بشيء، لكن قصة الحب يمكن للمرأة أن تغلقها وتحتفظ بها طيلة حياتها... وتحتفظ بها كل السنوات القادمة. إنني أعرف طبيعة البشر يا بني. فاعلم أن المرأة تستطيع أن تعيش على عاطفة من هذا القبيل لسنوات عديدة، أعتقد أننا أسدينا خدمة نافعة للسيدة "**باكنجتون**" نستحق عليها ما تقاضينا. وغادر الغرفة.

وأخذ السيد "**باركر باين**" ملفا جديدا من درج مكتبه وكتب عليه: (ظاهرة غريبة ليقظة ضمير "**جيجولو**" متمرس. ملحوظة: تدرس التطورات).

❖❖❖❖❖

شخصيات الفصل الثاني عشر

ويلارد بيترز: الفتى المخطوف

السيدة **ويلارد بيترز**: والدة الفتى

تومسون: المخبر "باركر باين الحقيقي

ديمتريوس: اللص ذو الحاجب الأسود

الفصل الثاني عشر

نذير في "دلفي"

لم تعجب "**اليونان**" السيدة "**ويلارد بيترز**" عموما، ولم تثر فيها "**دلفي**" أي اهتمام؛ فقد كان كل حلمها هو "**باريس**" و "**لندن**" و"**الريفييرا**"، كانت تهوى الفنادق الفاخرة ذات الرياش الثمينة والإضاءة العصرية، والأجهزة الكهربائية المتعددة والماء الساخن والبارد، والتليفون بجانب الفراش لكي تطلب الشاي والوجبات والمشروبات، ولتخاطب أصدقاءها في كل مكان.

لا يوجد شيء من هذا القبيل في فندق "**دلفي**"، كان المنظر رائعا من النافذة. وكان الفراش نظيفا مثل باقي الحجرة، كان في الغرفة أيضا كرسي واحد، ومكان للاغتسال، ودولاب ملابس. أما الحمام فيعد بناء على طلب النزيل، والماء لم يكن ساخنا باستمرار.

إلا أنه كان مما تغتبط له أن تقول إنها زارت "**دلفي**"، وقد حاولت جاهدة أن تهتم بتراث الإغريق القدامى لكنها لم تجد الأمر سهلا هينا؛ فالتماثيل كانت ناقصة الرؤوس أو الأذرع، وهي التي كانت لا يعجبها في التماثيل إلا ذلك الملاك الرخامي فوق قبر السيد "**ويلارد بيترز**"!

لكنها لم تفصح قط عن أفكارها خوفا من أن يحتقرها ابنها "**ويلارد**"، كانت في "**اليونان**" من أجله؛ تحتمل الغرفة غير المريحة والخادمة المتجهمة والسائق الكريه. كان "**ويلارد**" ابن السيدة "**بيترز**" يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت تحبه حبا جما، وهو الذي كان مولعا بالفن القديم؛ لذلك فإن هذا الشاب النحيل الباهت اللون الضعيف النظر هو الذي أجبر أمه على أن تصطحبه في هذه الجولة في "**اليونان**".

زارا "**الأوليمبا**" وكان من رأي السيدة "**بيترز**" أنه عبارة عن فوضى مؤسفة، أعجبها "**البارثنون**" قليلا لكن "**أثينا**" في رأيها كانت بلدا لا يساوي شيئا، أما زيارة "**كورنفوس**" و "**ميسينا**" فكانت عذابا أبديا.

وكانت "**دلفي**" القشة الأخيرة، لا شيء إلا المشي والتفرج على حطام وأطلال. أما "**ويلارد**" فكان يمضي الساعات على ركبتيه محاولا قراءة النقوش اليونانية ويصيح فرحا من آن لآخر وهو يشرح لأمه معنى الرموز، أما هي فكانت تجد في كل هذا منتهى البلاهة.

وفي هذا الصباح اعتذرت عن عدم مرافقته لرؤية بعض النقوش البيزنطية فقال لها ابنها:

– حسنا يا أمي. إنني أعرف أنك تريدين البقاء بمفردك حتى يتاح لك أن تتأملي المسرح القديم وترتوي من النظر إليه.

– تماما يا صغيري.

– كنت متأكدا أن هذا المكان سيستحوذ عليك. وتركها "**ويلارد**" مسرورا.

تنفست السيدة "**بيترز**" الصعداء، وتأهبت لتناول إفطارها، وجدت قاعة الطعام خالية إلا من أربعة أشخاص. أُم وابنتها ترتديان ملابس غريبة ويتكلمان عن الرقص

التعبيري، رجل بدين رأته من قبل عندما حمل حقيبتها وهي تغادر القطار في "**دلفي**"، ورجل آخر في منتصف العمر، أصلع الرأس كان قد وصل في الليلة السابقة.

كان القادم الجديد آخر من بقي في صالة الطعام، فمضى يتجاذب مع السيدة "**بيترز**" الحديث، كانت سيدة ودودا بطبعها وتحب أن تتحدث مع الناس، كان السيد "**تومسون**" البدين متحفظا جداً ولا يشجع أحدا على التحدث إليه... أما الأم وابنتها فكانتا متعجرفتين وإن كانت الفتاة قد بدأت تصادق "**ويلارد**".

ووجدت السيدة "**بيترز**" أن الرجل الجديد شخصيته جذابة؛ فقد كان واسع الإدراك لكن دون كبرياء، قص عليها الكثير عن الإغريق القدامى مما حببهم إليها. وقصت هي عليه كل شيء عن "**ويلارد**" وذكائه واهتمامه الفائق بالثقافة، كان هناك شيء بخصوص هذا القادم الجديد الذي يجعل الحديث معه ممتعا وسهلا في الوقت نفسه لكنها لم تعرف اسمه ولا مهنته، كل ما عرفته عنه أنه في رحلة يرفه بها عن نفسه، ولم يتحدث عن نفسه بأكثر من هذا.

ومضى اليوم أسرع مما توقعت، استمرت الأم وابنتها وكذلك السيد "**تومسون**" في الابتعاد عنها؛ حتى أن السيدة "**بيترز**" وصديقها الجديد قابلا "**تومسون**" خارجا من المتحف وما كان من الأخير إلا أن ولى وجهه الناحية الأخرى وأسرع مبتعدا عنهما، ونظر إليه الصديق الجديد باندهاش ثم سألها:

– من هذا الرجل يا ترى؟ وقالت السيدة "**بيترز**" اسمه، وكان هذا هو كل ما تعرف عنه.

– "**تومسون**"؟ لا أظن أني قابلته من قبل مع أن وجهه يبدو مألوفا بطريقة أو بأخرى.

وبعد الظهر اختارت السيدة "**بيترز**" لنفسها مكانا ظليلا ترتاح فيه قليلا، وتقرأ كتابا غير ذلك الذي أعطاه لها ابنها عن الفن الإغريقي، كان عنوان الكتاب (سر المركب النهري) ويتضمن أربع جرائم قتل وثلاث حوادث اختطاف، وعصابة ضخمة من المجرمين الخطرين، واستمتعت السيدة "**بيترز**" إلى أقصى حد وهي تقرؤه.

كانت الساعة الرابعة عندما عادت إلى الفندق؛ متوقعة أن يكون "**ويلارد**" قد عاد من رحلته، كان ذهنها خاليا تماما من أي شيء مكدر، لدرجة أنها لم تهتم بالإسراع في قراءة الرسالة التي سلمها لها صاحب الفندق قائلا: إن شخصا غريبا تركها لها.

وكانت الرسالة مكتوبة على ورقة قذرة، وبعد أن قرأت أول سطرين منها ابيض وجهها وارتعشت وكادت أن تسقط أرضا، كانت الرسالة بالإنجليزية لكنه كان واضحا أن كاتبها أجنبي. قالت الرسالة:

سيدتي:

نخطرك بان ابنك رهينة لدينا وهو في مكان أمين، لن يحدث أي ضرر للشاب المحترم إذا اتبعت التعليمات، إننا نطلب فدية له تعادل عشرة آلاف جنيه إسترليني، إذا تفوهت إلى صاحب الفندق أو الشرطة أو أي مخلوق آخر بشيء فسيقتل ابنك فورا، سنمنحك وقتا للتفكير، غدا ستصلك تعليمات عن كيفية دفع المبلغ، إذا لم تتبعيها فسنقطع أذني الشاب المحترم ونرسلهما إليك، وفي اليوم التالي إذا لم يدفع المبلغ فسنقتله، هذا ليس تهديدا أجوف. نرجو أن تفكر سيدتي جيدا وتلزم الصمت.

"**ديمتريوس**" ذو الحاجب الأسود.

كانت السيدة "**بيترز**" في حالة يرثى لها، على الرغم من الطريقة البدائية المكتوبة بها الرسالة، كان مضمونها كافيا لكي يملأها بالخوف والإحساس بالخطر، "**ويلارد**" ابنها حبيبها، "**ويلارد**" المثقف الجاد – يحدث له هذا! ستذهب فورا إلى الشرطة. سوف تخبر البلد كله، لكنها ارتجفت عندما فكرت فيما يمكن أن يحدث نتيجة لهذا. وخرجت من حجرتها تبحث عن صاحب الفندق؛ فهو الوحيد في الفندق الذي يتكلم الإنجليزية.

– الوقت متأخر وابني لم يعد. وضحك الرجل المرح:

– لقد رفض السيد أن يستخدم البغل وفضل أن يسير على قدميه، ربما تلكع قليلا في الطريق. وسألته السيدة "**بيترز**" بانفعال:

– هل يوجد أناس أشرار في هذه الناحية؟ وكان كل ما حصلت عليه هو سلسلة من التأكيدات على أن كل سكان "**دلفي**" أناس شرفاء بسطاء طيبون ويحبون الأجانب، كادت أن تقول له لكنها أمسكت لسانها بعد جهد، ألجمها الخوف، ربما كان الأمر كله مجرد خدعة، لكن التهديد كان جادا.

كانت لها صديقة أمريكية اختُطف طفلها وقُتل بمجرد إبلاغ الشرطة، هذه الأشياء كانت تحدث دائما، كانت قد أوشكت على الانهيار، لم تدرِ ماذا تفعل؛ فسلامة

"**ويلارد**" تساوي أضعاف العشرة آلاف جنيه. لكن من أين لها أن تحصل على المبلغ وكل ما عندها هو خطاب ضمان ببضع مئات من الجنيهات، سوف تكون هناك صعوبات لا نهاية لها لتحصل على مثل هذا المبلغ نقدا.

هل يمكن أن يقدر اللصوص هذه الظروف؟ هل ممكن أن يتعقلوا؟ هل ممكن أن ينتظروا؟ عندما جاءت إليها الخادمة طردتها بقسوة، ولما دق جرس العشاء ذهبت إلى صالة الطعام وأكلت دون وعي، ولم تلحظ أحدا آخر في القاعة وكأنه لم يكن هناك أحد غيرها في الفندق.

وعند تقديم الفاكهة كان هناك رسالة أخرى لها، وانزعجت أول الأمر إلى أن وجدت الرسالة مكتوبة بخط مختلف، خط إنجليزي أنيق، فتحت الرسالة دون اهتمام لكن محتوياتها أثارتها: (لم يعد في الإمكان استشارة الأنبياء في "**دلفي**" لكن يمكنك استشارة السيد "**باركر باين**")

ومع الرسالة كانت توجد قصاصة من صحيفة ملصقة في ورقة، وفي أسفل الورقة. كانت هناك صورة ملصقة أيضا بها، كانت صورة صديقها الأصلع، وقرأت السيدة "**بيترز**" القصاصة مرتين: (هل أنت سعيدة؟ إذا لم تكوني سعيدة فاستشيري السيد "**باركر باين**")، كانت هذه القصاصة بمثابة نجدة، فكتبت بسرعة على الورقة: (أرجوك ساعدني، قابلني خارج الفندق بعد عشر دقائق إن أمكن) وطلبت من الخادم أن يوصل الرسالة إلى السيد الجالس بجوار النافذة. وبعد عشر دقائق خرجت من الفندق إلى الليل البارد، إلى حيث وقف ينتظرها السيد "**باركر باين**"، قالت له وهي تلهث:

– وجودك هنا نعمة من السماء، لكن كيف خمنت أنني في ضيق؟ هذا ما أريد أن أعرفه.

– حاسة الإنسان، عرفت فورا أن هناك ما يضايقك، والآن أريد أن أعرف ما هو؟ واندفعت تروي له كل شيء وأعطته الرسالة ليقرأها على ضوء بطاريته.

– رسالة غريبة. هناك بضع نقاط... لكن السيدة "**بيترز**" قاطعته وسألته عما يستطيع أن يفعله بخصوص "**ويلارد**"، وأخذ السيد "**باين**" يطمئنها، قال لها إن اللصوص سيحافظون على رهينتهم بعناية لأنه يمثل في نظرهم مبلغا ضخما من المال، وبالتدريج استطاع أن يهدئ من أعصابها.

– لكن ماذا عليَّ أن أفعل؟

– انتظري إلى الغد إلا إذا كنت تريدين الذهاب مباشرة إلى الشرطة. وصرخت السيدة "**بيترز**":

– إن "**ويلارد**" سيقتل لا محالة إن أخطرت الشرطة. هل تظن أن حبيبي "**ويلارد**" سيعود إلي سالما؟

– دون شك. المشكلة هي أن يعود دون أن تدفعي العشرة آلاف جنيه.

– كل ما أريده هو ابني.

– طبعا طبعا، من الذي سلم الرسالة إليك؟

– قال صاحب الفندق إنه شخص غريب لم يره من قبل.

– هناك عدة احتمالات في هذه الحالة، يمكننا أن نتتبع الشخص الذي سيحضر الرسالة غدا، وبهذه المناسبة كيف ستعللين غياب ابنك عن الفندق؟

– لم أفكر في هذا.

– ربما أمكنكِ أن تبدي انزعاجا لعدم عودته؛ فسيرسلون فرقة للبحث عنه.

– لكن هؤلاء الأوغاد...

– لا داعي إلى القلق؛ فطالما لم تتكلمي عن الخطف والفدية المطلوبة فلن يقع أي ضرر، ومهما يكن فإنهم لا يتوقعون أن تتقبلي مسألة اختفاء ابنك هكذا ببساطة.

– هل أستطيع أن أترك كل شيء لك لتتصرف؟

– هذه هي مهنتي. واستدارا ليعودا إلى الفندق وكادا أن يصطدما بشخص في الظلام.

– من كان هذا؟

– أظن أنه كان "**تومسون**". وغمغم السيد "**باين**":

– "**تومسون**"؟ وفي غرفتها فكرت في أن ما قاله السيد "**باين**" بشأن الرسالة كان غاية في الصواب؛ فإن الذي سيحضر الرسالة غدا قطعا على اتصال بالعصابة، واستراحت قليلا لهذه الفكرة ونامت بأسرع مما كانت تظنه ممكنا. وبينما هي ترتدي ملابسها في صباح اليوم التالي إذ وجدت مظروفا ملقى بجانب النافذة، وانتفض قلبها؛ فقد كانت رسالة على نفس الورق القذر وبنفس الخط الرديء:

(صباح الخير يا سيدتي، هل فكرت جيدا؟ ابنك بخير ولم يصبه أذى إلى الآن لكن لابد أن نحصل على المبلغ، وربما كان من العسير عليك الحصول على مثل هذا المبلغ، لكن قيل لنا أن عندك عقدا من اللؤلؤ الخالص. سنكتفي بهذا بدلا من النقود، هذا ما يجب عليك أن تفعليه، أنت أو أي شخص تختارينه، عليه أن يحضر العقد إلى الاستاد ومن هناك تصعدين إلى حيث توجد شجرة بجانب صخرة كبيرة، سوف ترقبكم الأعين للتأكد أن شخصا واحدا سيقوم بالمهمة، وهناك سيتم تبادل ابنك بالعقد. الموعد غدا في تمام السادسة صباحا بعد الشروق مباشرة، إذا نبهت الشرطة سنضرب ابنك بالرصاص وهو معك في العربة في طريقكم إلى المحطة، هذه آخر رسالة منا، إذا لم نحصل على العقد غدا سنرسل لك أذني ابنك، وفي اليوم التالي يموت.

مع تحياتي إلى سيدتي
"**ديمتريوس**"

وأسرعت السيدة "**بيترز**" إلى السيد "**باين**" الذي قرأ الرسالة باهتمام.

– هل هذا صحيح بخصوص العقد؟

– صحيح تماما، دفع فيه زوجي مائة ألف دولار.

– لصوص على علم تام بكل شيء. قالها السيد "**باين**" في همس.

– ماذا تقول؟

– كنت أدرس بعض نواحي الموضوع.

– ليس عندنا وقت لدراسة النواحي؛ فأنا أريد ابني حيا!

– لكنك امرأة شجاعة يا سيدتي، هل ستتركين هؤلاء اللصوص يخدعونك ويتحكمون فيك؟ هل تحبين أن تسلمي لآلئك بخنوع لهؤلاء الأوغاد؟

– طبعا لا، كل ما أريده هو أن أسوي حسابي معهم هؤلاء الجبناء؛ فبمجرد أن يعود ابني سأرسل خلفهم الشرطة وأهل البلد، وإن اقتضى الأمر أستأجر عربة مصفحة لنركب فيها إلى المحطة.

– لكنني أخشى أن يكونوا مستعدون لاحتمال كهذا؛ فإنهم يعلمون جيدا أنه بمجرد عودة "**ويلارد**" لن يردك شيء عن إبلاغ الدنيا كلها بما حدث.

– إذن ماذا سنفعل؟ وابتسم السيد "**باركر باين**" :

– أريد أن أجرب خطة صغيرة معهم. ثم نظر حوله بحذر ووجد أن صالة الطعام خالية إلا منهما فأضاف :

– لي صديق في "**أثينا**" ، خبير مجوهرات ماهر متخصص في الأحجار المقلدة، سأتصل به تليفونيا، يمكنه أن يحضر بعد الظهر ومعه مجموعة من الجواهر المزيفة.

– ماذا تقصد؟

– سوف نستبدل بالآلئ الحقيقية أخرى مزيفة.

– أروع فكرة سمعتها في حياتي. ونظرت إليه السيدة "**بيترز**" بإعجاب غير خاف.

– خفضي صوتك. والآن هل يمكنك القيام بمهمة صغيرة؟

– بالتأكيد.

– احرصي على ألا يقترب أحد مدى السمع من التليفون. وكان التليفون في حجرة المدير الذي أخلاها لهم فورا بعد أن ساعد السيد "**باين**" في طلب الرقم، ولما غادر الحجرة وجد السيدة "**بيترز**" التي قالت له إنها تنتظر السيد "**باين**" للذهاب إلى نزهة. كان السيد "**تومسون**" أيضا في الردهة، واقترب منهما وأخذ يسأل المدير عما إذا كان من الممكن استئجار فيلات في "**دلفي**".

– هناك فيلا يملكها أحد اليونانيين لكنه لا يؤجرها.

– ألا توجد فيلات أخرى؟

– هناك واحدة تملكها سيدة أمريكية في الطرف الآخر من القرية، مغلقة حاليا، وهناك أيضا فيلا يملكها فنان إنجليزي على الصخرة التي تطل على "**إيتيا**" وتدخلت السيدة "**بيترز**" في الحديث، كانت الطبيعة قد منحتها حنجرة قوية مما جعل صوتها عاليا.

– من الرائع أن يمتلك الشخص فيلا هنا. إنه لمكان ساحر، أليس كذلك يا سيد "**تومسون**"؟ قطعا أنك تظن ذلك طالما تبحث عن فيلا. هل هذه أول زيارة لك هنا؟ واندفعت في الكلام بصوت عالٍ حتى خرج السيد "**باركر باين**" من الغرفة وابتسم لها، ونزل السيد "**تومسون**" ببطء وخرج إلى الطريق حيث انضم إلى المرأة المتعجرفة وابنتها.

وسار كل شيء على ما يرام؛ فقد وصل خبير المجوهرات قبل العشاء في سيارة ممتلئة

بالسياح، وذهبت السيدة "**بيترز**" إلى غرفته ومعها العقد.

– تستطيع سيدتي أن تثق بالنجاح. وأخرج حقيبة صغيرة وانهمك في عمله. وفي الساعة الحادية عشرة ذهب السيد "**باين**" إلى غرفتها وناولها كيسًا بنيًّا صغيرًا.

– جواهري!

– خفّضي صوتك. ها هو العقد المزيف، متقن تماما، أليس كذلك؟

– مدهش!

– إن "**أريستو بولوس**" صائغ ماهر.

– ألا تظن أنهم سيشكون في الأمر؟

– كيف يمكنهم ذلك؟ هم يعلمون أن معك العقد، وسوف تسلمينه لهم؛ فكيف يمكنهم إدراك أن في الأمر خدعة؟ وناولته السيدة "**بيترز**" العقد ثانية:

– هل يمكنك أن تحمل أنت العقد إليهم أم أني أطلب منك الكثير؟

– بكل تأكيد، فقط أعطيني الرسالة حتى أحفظ التعليمات جيدا. والآن نامي جيدا وتشجعي، سوف يكون ابنك معك على الإفطار غدا.

– يا ليتني أستطيع أن أصدق ذلك!

– لا تقلقي، اتركي كل شيء لي. لم تنم السيدة "**بيترز**" جيدا. فقد راودتها أحلام بشعة فيها لصوص يركبون المصفحات ويطلقون مدافعهم الرشاشة على ابنها "**ويلارد**" الذي كان يجري على سفح جبل ببيجامته، وقامت مفزعة وبقيت مستيقظة حتى الصباح تنتظر. وفي السابعة سمعت الباب يدق. فانخلع قلبها.

– ادخل. وفتح الباب ودخل السيد "**تومسون**". وحملقت السيدة "**بيترز**" إلى وجهه. خانتها الكلمات من هول إحساسها بالفاجعة التي توقعتها لكن عندما تكلم كان صوته طبيعيا وهادئا وحنونا.

– أسعدت صباحا يا سيدتي.

– أنت؟ كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ؟

– أرجوك أن تغفري لي هذه الزيارة غير المناسبة في هذا الوقت المبكر لكنها زيارة عمل لابد من أن أقوم بها. وانحنت نحوه السيدة "**بيترز**" وعيناها تقدحان شررا:

– إذن فأنت الذي اختطفت ابني، لم يكن هناك لصوص على الإطلاق.

– بالتـأكـيـد لـم يكن هناك لصـوص، كـانت هـذه حـيلة لا تنطلي أبدا على أحـد.

وصاحت السيدة "**بيترز**" بغضب:

– أين ابني؟

– واقف خارج الباب. ودخل الابن ذقنه غير حليق وخدوده غائرة، واندفعت أمه نحوه تحتويه بين ذراعيه، وبعد فترة استدارت نحو الرجل:

– مهما يكن فسوف أبلغ عنك الشرطة سوف أسلط عليك القانون. قال "**ويلارد**":

– أنت مخطئة يا أمي؛ فهذا الرجل هو الذي أنقذني.

– وأين كنت أنت؟

– في منزل فوق الصخرة يبعد حوالي كيلومتر تقريبا من هنا. وقال "**تومسون**":

– واسمحي لي يا سيدتي بأن أعيد ممتلكاتك إليك. وناولها لفافة ما إن فتحتها حتى وجدت العقد. ولا داعي إلى أن تحتفظي بالكيس الآخر، هذا هو العقد أو اللآلئ الحقيقية، أما الكيس ففيه الأحجار المقلدة. فإن "**أريستو بولس**" فنان ماهر كما قال صديقك.

– إنني لا أستطيع أن أفهم شيئا مما يحدث.

– حاولي أن تنظري إلى الأمر من ناحيتي أنا؛ فقد أثار انتباهي استخدام اسم معين فأخذت أتتبعك أنت وصديقك البدين وأتسمع حديثكما الشيق، ووجدت الأمر جديرا بالاهتمام لدرجة أنني أسررت به إلى مدير الفندق، فأخذ مذكرة برقم التليفون الذي طلبه صديقك، ثم طلب من أحد الخدم أن يتسمع إلى حديثكما في قاعة الطعام، وتكشف كل شيء؛ فقد كنت ضحية لاثنين من لصوص المجوهرات العتاة، كانا يعرفان كل شيء عن العقد، تتبعاك إلى هنا واختطفا ابنك، ثم كتبا الرسالة المضحكة وبعدها دبَّرا الأمر بحيث تضعين ثقتك كلها في الرأس المدبر للعملية.

ثم كان كل شيء سهلا بعد ذلك: يسلمك السيد المحترم كيسا يحوي لآلئ مقلدة ويهرب مع رفيقه، وفي الصباح عندما لا يظهر ابنك يستبد بك الفزع، وغياب صديقك يجعلك تعتقدين أنهم اختطفوه هو الآخر، أعتقد أنهم قد بنوا خطتهم على أن يذهب أحد إلى (الفيلا) غدا حيث يعثر على ابنك، وإلى أن تصلا إلى الحقيقة يكون اللصان قد ابتعدا بما فيه الكفاية.

– والآن؟

– مقبوض عليهما. لقد دبرت ذلك أيضا.

– يا له من وغد، سافل حقيرا ووافقها السيد "**تومسون**" :

– رجل غير مهذب على الإطلاق. وقال "**ويلاره**" بإعجاب:

– لا يمكنني أن أفهم كيف توصلت إليهم، منتهى الذكاء.

– أبداً. عندما يسافر المرء وهو متخفٌ ثم يسمع اسمه... وقاطعته السيدة "**بيترز**" :

– من أنت؟

– أنا السيد "**باركر باين**" الحقيقي.

تمت بعون الله

أجاثا كريستي

{1976 - 1890}

-الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى 103 لغات.

- بيع من كتبها أكثر من 900 مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

- كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصّبها ملكة عليهم جميعًا. تميَّزت أيضًا بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. وروياتها تضمَّنت أيضًا أهدافًا إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

الثعلب

Parker Pyne investigates

كُلُّ مهنة لها خَباياها وأسرارُها، ولكن أن تكون المهنةُ هي تحقيقُ (السعادة) للناس؛ فهذا شيءٌ في منتهى الصُّعوبة، ولكنَّ بطَلَنا «باركر باين» المخبر ذا الخبرةِ الواسعةِ، استطاع بخبرته أن يحقّق لكل شَخْص السعادةَ التي ينشُدها؛ فهو يقسِّم التعاسة إلى خمسةِ أقسامٍ سيتابعُها القارئُ في كُلِّ صنفٍ من صُنُوفِ البشر التُّعساء: الغنيةُ التي يُرهِقُها مالُها الكثير، الزوجُ القلقُ لعدم اسْتطاعته إرضاء زَوجته، امرأةٌ تبحثُ عن طِفْلها الوحيدِ المخطوف، فتاةٌ خائفة من اتهاماتٍ باطلةٍ، وغيرُ ذلك من (أدواء القلوب) كما يسميها مخبرُنا «باين»؛ فهو يجعلُ من نفسهِ طبيبًا للقلوب الجريحةِ... فهل سينجحُ في مهمته تلك؟

ثمن الكتاب

لبنان ـــــ 5000 ل.ل.	قطر ـــــ 10 ريالات
سوريا ـــــ 100 ل.س.	عُمان ـــــ 1.5 ريال
الأردن ـــــ 1.5 دينار	مصر ـــــ 10 جنيهات
السعودية ـــــ 10 ريالات	المغرب ـــــ 30 درهما
الكويت ـــــ 1 دينار	ليبيا ـــــ 5 دنانير
الإمارات ـــــ 10 دراهم	تونس ـــــ 4 دنانير
البحرين ـــــ 1.5 دينار	اليمن ـــــ 400 ريال

9 789953 383699